الفصل السادس

المسيحيون وثورة ١٩١٩

توفى الزعيم مصطفى كامل ١٩٠٨ بعد أن أشعل روح الجهاد ضد الاستعمار الإنجليزى فى نفوس المصريين، وكون رأيا عاما فى بعض الدول الأوروبية ضد فظائع الاحتلال البريطانى لمصر، ويحسب له أنه وبعض معاصريه أضافوا عدة أدوات لتنمية الوعى لدى المصريين، وهى:

- الجامعة.
- المدارس الأهلية.
- الأحزاب.
- الصحافة الحزبية.

ويضاف إلى هذا إرسال المصريين أولادهم للتعلم فى أوروبا، فقد مكنهم السفر لأوروبا من التعرف إلى مفاهيم سياسية عصرية مثل: الديمقراطية، الليبرالية، الاشتراكية، الحرية السياسية، حكم القانون، العقد الاجتماعى، الدولة العلمانية، وغيرها من الأفكار التى تعلقوا بها ونقلوها لوطنهم، وحلموا بتحقيقها من أجل تحقيق النهضة، واللحاق بأوروبا.

كل هذا أدى إلى تراكم الوعى لدى المصريين بضرورة تحقيق الاستقلال باعتباره خطوة أساسية نحو المستقبل، وبسبب هذا الوعى تفجرت الثورة الوطنية العظمى عام ١٩١٩.

ولم يكن مفهوم الاستقلال مفهوما سياسيا فقط، بل كان مفهوما شاملا، لذلك وجدنا طلعت حرب ينادى ١٩١١ بضرورة إنشاء بنك وطنى يحقق الاستقلال الاقتصادى، ورأينا سيد درويش يحاول الوصول إلى موسيقى مصرية قبل نشوب ثورة ١٩١٩، ومحمد حسين هيكل يكتب روايته الأولى زينب لتكون أول رواية مصرية وعربية بالمعنى الحقيقى للكلمة ١٩١٠. ومحمد تيمور يؤلف أول مسرحيات مصرية خالصة، تعالج الواقع المصرى، من خلال شخصيات مصرية، دون اللجوء للاقتباس أو النقل من المسرح الأوروبى، وكذلك الأمر بالنسبة لمحمود مختار الذى استلهم الفن المصرى القديم فى تماثيله الرائعة، محاولا الابتعاد عن تقليد فن النحت الأوروبى.

كان مصطفى كامل إذن، ومن حوله، ومن تلوه، هم خميرة ثورة ١٩١٩. والمهم أن المصريين الذين نما وعيهم رأوا أن من حق مصر أن تنال استقلالها، وأن هذا جزاء عادل لما قدمته لانجلترا من خدمات وتضحيات خلال الحرب العالمية الأولى، ولذلك فما إن ظهرت بوادر انتهاء الحرب حتى بدأ التفكير فى تكوين وفد للتحدث باسم مصر والمطالبة باستقلالها. والحقيقة أنه كانت هناك مشروعات متعددة

لتكوين الوفد لكن سعد زغلول فى النهاية هو الذى كون الوفد وضم معه فى البداية رجلين شهيرين، هما: على شعراوى، وعبد العزيز فهمى.

ولن نكرر الأحداث المعروفة التى دارت فى اللقاء بينهم وبين المعتمد البريطانى، لكنا سننتقل لمابعدها، فقد أبى مسيحيو مصر أن يغيبوا عن طلب استقلال البلاد، فاختاروا ثلاثة منهم لمقابلة سعد زغلول، هم: فخرى عبد النور، وويصا واصف، وتوفيق أندراوس، ليطلبوا منه ضم المسيحيين للوفد باعتبارهم شركاء فى الوطن، ومن حسن الحظ أن فخرى عبد النور سجل لنا هذا اللقاء بوصفه أحد الفرسان الثلاثة. يقول فخرى عبد النور:

«رحب بنا سعد باشا ترحيبا كبيرا، وأعرب عن اغتباطه بالفكرة التى حضرنا من أجلها. ثم دار الحديث حول اختيار عضو أو أكثر من الأقباط فى الوفد وظن سعد أننا جئنا لنرشح الأستاذ ويصا فأعرب عن اغتباطه بهذا الترشيح. إلا أن الأستاذ ويصا اعتذر لأن أعماله فى مصر كثيرة، وتحول دون سفره إلى باريس، كما أن ظروفه الخاصة لا تسمح له بذلك.

وأذكر أنه حدث فى أثناء هذا الحديث أن تحمس الأستاذ توفيق أندراوس، وكان سعد باشا يشرح لنا أهداف الوفد، فقال معقبا على كلمة سعد باشا:

«إن الوطنية ليست حكرا على المسلمين وحدهم».

فسُر سعد باشا وقبله على هذه الكلمة. وعاد الأستاذ توفيق فأكد أن العنصرين اللذين تتألف منهما الأمة – المسلمين والأقباط – يعملان

بتفكير واحد، ورأى واحد، فيما يحقق مصلحتهما فى الحصول على الاستقلال.

وأخيرا أبلغنا سعد باشا أن المثقفين والوجهاء الأقباط انتدبونا - نحن الثلاثة - لنبلغه أن الشخص الحائز للصفات الكاملة لعضوية الوفد، سواء من وجهة الثقافة أو الثروة، أو الجاه، هو الأستاذ واصف بطرس غالى ثانى أبناء المغفور له بطرس باشا غالى. فاغتبط سعد باشا لهذا الاختيار وأعرب عن ثقته وتقديره لعلمه ومكانته[1]».

منذ هذه اللحظة تغير الوضع وصار المسلمون والأقباط فى مصر كيانا واحدا. وقد أرسى سعد القاعدة التى سيتم التعامل على أساسها خلال حواره مع جورج بك خياط حين سأله جورج:

- ما هو مركز الأقباط، وما هو مصيرهم بعد انضمام ممثليهم إلى الوفد؟

فأجابه سعد: اطمئن، إن للأقباط مالنا من الحقوق، وعليهم ما علينا من الواجبات، على قدم المساواة[2]».

وسرعان ما ضم الوفد سينوت حنا بك عضو الجمعية التشريعية وجورج خياط بك من كبار أعيان أسيوط فى ديسمبر ١٩١٨.

وحين سافر الوفد إلى باريس كان فيه ثلاثة مسيحيين (واصف غالى، سينوت حنا، جورج خياط)، زادوا إلى أربعة بانضمام ويصا واصف إليهم بعد وصولهم إلى باريس. كما أن الوفد ضم إليه عددا من المسيحيين

(١) فخرى عبد النور: مذكرات فخرى عبد النور، القاهرة، ١٩٩٢، ص ٤٥ - ٤٧.
(٢) مذكرات فخرى عبد النور، ص ٤٧.

ملحقين ومترجمين. هم: عزيز منسى، وجورج دومانى. وكان معهم ويصا واصف إلا أنه ترك عمله فى الترجمة وانضم للوفد كما ذكرنا.

وفى أبريل ١٩١٩ نظم الموظفون المصريون إضرابا عاما. وكان من كبار الموظفين المسيحيين الذين شاركوا فى هذا الإضراب: صادق حنين بك (مدير إدارة وزارة الزراعة) الأساتذة سلامة بك ميخائيل، والدكتور نجيب اسكندر (من وزارة الصحة[1]).

وعاد سعد إلى مصر، بعد حوالى عامين من الغياب، احتفل المسيحيون بعودته مثلما احتفل به المسلمون، ومن بين الجهات التى احتفلت به الجمعية الخيرية القبطية، وجمعية ثمرة التوفيق القبطية. وتبرع سعد للجمعية الخيرية بمئة جنيه لمساعدة الطلاب الفقراء، وتبرع الشيخ محمد بخيت مفتى الديار المصرية – وكان فى صحبة الزعيم– للجمعية أيضا.

ومن الحوادث ذات الدلالة أن حكمدار الغربية أطلق النار على المتظاهرين فقتل وأصاب منهم عددا غير قليل، وتصادف أن اليوم التالى هو يوم عيد الفصح عند المسيحيين فأرسل فخرى عبد النور وواصف غالى وسينوت حنا وجورج خياط تلغرافا بأن الأقباط لا يتبادلون التهانى بالعيد احتجاجا على سفك الدماء وحزنا على الضحايا، ونشر التلغراف فى صحيفة الأخبار وأجمع الأقباط على الحداد[2].

وشكل عدلى يكن الوزارة، لكن سعدا لم يهادنه، ورأى أنه ليس من حق عدلى أن يتفاوض مع الإنجليز باسم مصر، لأن الشعب فوضه هو،

(١) مذكرات فخرى عبد النور، ص ٧١.

(٢) مذكرات فخرى عبد النور، ص ١٤١.

وانضم الشعب مسلمين ومسيحيين إلى سعد، وقرر الزعيم زيارة الصعيد في رحلة نهرية، واستقل مركبا نيليا لكي يتمكن من الوقوف عند المدن الكبرى وعواصم المحافظات ليخاطب شعبه، لكن الوزارة وقفت لسعد بالمرصاد، وقررت منعه بكل السبل من النزول إلى الشاطئ، وكان المسيحيون والمسلمون برغم كل التحديات يصلون إلى سفينة سعد بالقوارب لكي يبلغوه أنهم معه.

المحطة الوحيدة التي تمكنت من الرسو عليها، وهي عزبة البكوات: سينوت بك حنا، وبشرى حنا، وشارل حنا.

وفي ١٩٢٤ قام سعد بتشكيل وزارة الوفد الأولى، وذهب يعرض أسماء وزرائه على الملك فؤاد، وراح الملك يحصي الأسماء ثم قال لسعد:

– هناك غلط في العدد. عدد الوزراء عشرة، والتقاليد أجمعت على أن يكون تسعة منهم مسلمون وقبطي واحد، وهؤلاء ثمانية مسلمون ومرقص حنا بك وزير الأشغال، وواصف غالي أفندي وزير الخارجية.

قال سعد: هذه وزارة ثورة لا وزارة تقاليد. عندما نفى زعماء الثورة إلى جزيرة سيشل، نفوا أربعة مسلمين واثنين من الأقباط. وعندما حكموا على قادة الثورة بالإعدام حكموا على أربعة أقباط وثلاثة مسلمين. وعندما كانوا يطلقون علينا الرصاص في المظاهرات لم يراعوا النسبة بين الأقباط والمسلمين. ولهذا نحن لا نراعي النسبة اليوم «ورضخ الملك لرأي سعد ووقع المرسوم الملكي بتأليف الوزارة[1]».

(١) مصطفى أمين، مقدمة مذكرات فخري عبد النور، ص ١٣.

هذه هى الروح التى سادت المصريين خلال ثورة ١٩١٩. ولابد لكى نتعرف إلى تاريخ هذه الفترة أن نتعرف إلى أدوار بعض أقباط مصر.

واصف غالى أول عضو فى الوفد المصرى

● البداية الصعبة

ظهر اسم واصف بطرس غالى على الساحة السياسية فى ظروف بالغة الصعوبة، حيث قام شاب مسلم اسمه إبراهيم الوردانى باغتيال والده بطرس باشا غالى رئيس وزراء مصر. وأظن أن المدخل الصحيح أن نبدأ بالوقوف أمام هذا الحادث لنبين الشخصية الحقيقية لهذا الرجل النبيل: واصف غالى باشا.

تبدأ قصة اغتيال بطرس غالى قبل حادث الاعتداء عليه بسنوات. وبالتحديد عام ١٩٠٦، بعد وقوع حادثة دنشواى. فقد أصدر الرجل. الذى كان يشغل منصب وزير الحقانية بالنيابة. قرارا بتشكيل المحكمة المخصوصة لمحاكمة المتهمين على النحو التالى:

- بطرس غالى رئيسا.

وعضوية كل من:

- المستر هتر نائب المستشار القضائى.
- المستر بوند وكيل محكمة الاستئناف.
- القائمقام لادلو القائم بأعمال المحاماة والقضاء بالجيش البريطانى.
- أحمد فتحى زغلول رئيس محكمة مصر الابتدائية.

ويمثل الادعاء إبراهيم الهلباوى.

وتولى السكرتارية عثمان مرتضى رئيس أقلام وزارة الحقانية[1].

وحكمت المحكمة على فلاحى دنشواى أحكاما قاسية. فلم يغفر الشعب المصرى لكل من شاركوا فى هذه المحكمة جرمهم أبدا، وسماهم بجلادى دنشواى. ووصلت الحدة فى التعامل مع هؤلاء الأعضاء أن ذهب مصطفى كامل ذات يوم لزيارة سعد زغلول فى بيته فوجد عنده أخاه أحمد فتحى زغلول عضو المحكمة، ومد أحمد فتحى يده لمصطفى ليصافحه، لكن مصطفى كامل رفض مصافحته، وقال له: «أنا لا أصافح جلاد دنشواى».

كان موقف المصريين إذن موجها لكل من شارك فى المحاكمة مسلما كان أو مسيحيا، وكان من الطبيعى أن ينسحب هذا الغضب على الرجل الذى شكل المحكمة وتولى رئاستها بطرس غالى.

وقفزت الأقدار ببطرس غالى سنة ١٩٠٨ إلى منصب رئيس نظار مصر، ولو كانت مصر بلدا طائفية لما وصل الرجل أبدا إلى هذا المنصب. وكان سبب اختياره كما يقول الدكتور يونان لبيب رزق فى كتابه «تاريخ الوزارات المصرية» أنه «ظل طوال عمله خلال الخمس عشرة سنة السابقة حريصا على إبقاء حسن الروابط مع الاحتلال ومع القصر بالرغم من الاختلاف بين الجانبين»[2].

---

(١) عبد الرحمن الرافعى: مصطفى كامل باعث النهضة الوطنية، القاهرة، ١٩٥٢، ص٩٤.

(٢) د. يونان لبيب رزق: تاريخ الوزارات المصرية. القاهرة، ١٩٩٨. ص١٥١.

وهذا يعنى أن بطرس غالى كان كل همه السادة لا الشعب، وأنه لم يتعلم من دنشواى. ولهذا وجدناه حين تولى تشكيل الوزارة يواصل أفعاله التى تجلب غضب الشعب عليه حيث أعادت هيئة النظارة إحياء قوانين القمع وأهمها قانون المطبوعات الصادر فى نوفمبر ١٨٨١، وكان قد بطل استخدامه منذ عام ١٨٩٤ فأعيد إلى الحياة على عهد تلك النظارة (٢٥ مارس ١٩٠٩) وهو قانون يقيد حرية الصحافة إلى حد كبير»[١].

ولم يمر هذا القانون بسهولة، فقد تصدى له الشيخ عبدالعزيز جاويش فى صحيفة اللواء فى معركة شرسة، انتهت بسجن جاويش فاعتبره الناس بطلا، لأنه واجه بطرس غالى الذى يريد إسكات الأصوات.

وقبل إعادة هذا القانون سيئ السمعة قام بطرس غالى بشىء آخر مستفز، إذ جعل محاكمات الصحفيين أمام محكمة الجنايات بدلا من محاكمتهم أمام محكمة الجنح. لكن ذروة أفعال بطرس غالى المستفزة كانت عام ١٩٠٩، فيما يسمى بمعركة مد امتياز قناة السويس.

كان امتياز قناة السويس ينتهى عام ١٩٦٨، وفكر الإنجليز فى إحكام قبضتهم على هذا المرفق الحيوى لأطول فترة ممكنة فعرضوا مد الامتياز لمدة أربعين سنة أخرى مقابل أربعة ملايين جنيه يدفعونها تقسيطا لمصر. وكانت النية أن توافق الوزارة لولا أن وقعت نسخة من الاتفاقية

(١) تاريخ الوزارات المصرية، ص ١٥٤.

فى يد محمد فريد رئيس الحزب الوطنى فقام بنشـرها فكانت فضيحة، وتصـدت الصحافـة لهذه الاتفاقية، وقام طلعت حـرب بتأليف كتاب كامل يبين فيه خطورة هذه الاتفاقية، والخسـائر التى ستعود على مصر بسببها، وأحيل الأمر لمجلس شورى النواب برئاسة الأمير حسين كامل فرفضه المجلس بالإجماع، عدا صوت واحد للنائب مرقص سميكة.

نتيجـة لـكل هـذه الممارسـات قـرر أحـد الشـباب الوطنيـين (إبراهيم الوردانـى) اغتيال بطرس غالى رئيس وزراء مصر، ولا شـك أن الاغتيال ليس حلا لمشاكل الوطن لكن هذا ما حدث.

وحاول الإنجليز استغلال الحادث ليجعلوا منه دليلا على الطائفية، وهنا بـرز واصف غالى ليتصدى لهذه المحـاولات، مؤكدا أن ما حدث مجرد حادث فردى لا علاقة له بالطائفية، وحين قال له سفير بريطانيا فى باريس:

- كيف تضع يدك فى يد من قتلوا أبيك؟

قال: هذا خير لى من أن أضع يدى فى يد من قتلوا وطنى».

وقد انسـاق بعض المصريين وراء الإنجليـز فى اعتبار الحادث دليلا على الطائفية الموجهة للمسـيحيين، ونادوا بعقد مؤتمر قبطى فى أسيوط لمناقشـة مشـاكل المسـيحيين المصريين، وتقرر عقد المؤتمر فى ٦مارس ١٩١١ بمدينة أسيوط. وهنا ظهر الموقف الثانى لواصف غالى، فقد هاجم المؤتمر قبل انعقاده، واعتبره تكريسـا للطائفية، ورفض المشـاركة فيه. مؤكدا أن مصر وطن للمسلمين والمسيحيين معا.

هـذان الموقفان يبينـان معدن هذا الرجل النفيـس، ويتيحان لنا أن نتابع الحديث عنه.

● سيرة حياة

ونقترب من واصف غالى لنتعرف إليه.

ولد واصف غالى فى حى الفجالة من أحياء القاهرة فى ١٤أبريل عام ١٨٧٨، وتعلم فى مدرسـة الجزويت، ولأن والده ينتمى للأرسـتقراطية المصرية فقد أرسـله للحصول على ليسـانس الحقوق من فرنسا، فحصل على درجة الليسانس عام ١٩٠٤.

أتاحت له الإقامة فى فرنسا أن يعرف الفرنسية كواحد من أبنائها، كما تزوج بفتاة فرنسية، لكن أهم ما تعلمه فى فرنسا كان طريقة التفكير المنفتحة، وأهمية الحرية فى حياة الشـعوب والأفراد. كما أن بعده عن الوطن جعل حب هذا الوطن يشتعل فى قلبه.

عمل واصـف غالى بعد عودتـه بالخاصة الملكية، ثـم تركها للعمل بالمحامـاة. ولم يكـن العمل بالمحاماة ممـا يليق بأبنـاء الطبقة العليا فـى ذلك الوقـت، حتى إن والد محمد فريـد كان يبكى حين قرر ابنه الاشـتغال بالمحاماة. ولا شك أن دخول واصف غالى إلى ساحة المحاماة آنئذ يعتبر دلالة على جرأته واتساع أفقه.

ولأنه كان متزوجا من فرنسية، وكان دائم التنقل بين فرنسا ومصر، فقـد منعته الحرب العالمية الأولى مـن العودة إلى أرض الوطن، فبقى فى فرنسا إلى أن وضعت الحرب أوزارها، وبعد انتهاء الحرب هب المصريون

يطالبون بالاستقلال، وكونوا الوفد المصرى، واختار الأخوة المسيحيون واصف غالى عضوا فى الوفد.

بعد سفر الوفد لباريس انضم واصف غالى لبقية زملائه للمطالبة بحقوق وطنه، ولأنه يتقن الفرنسية، ويعرف طرق الاتصال بالإعلام فى فرنسا فقد اختاره سعد ليكون مسؤولا عن الإعلام. فقام الرجل بالمهمة على أكمل وجه.

لم يلبث أن ظهر بين رجال الوفد اتجاهان:

- اتجاه يتزعمه سعد زغلول ويتمسك بالاستقلال التام، وعدم التهاون فى المطالبة بالحقوق المصرية.
- اتجاه برجماتى يضم عبد العزيز فهمى ولطفى السيد وعلى شعراوى ويؤازرهم من الخلف عدلى يكن باشا صهر الأسرة العلوية، ويرى أن ما لا يدرك كله لا يترك كله، ومن الأفضل لمصر أن تحصل على ما يمكن الحصول عليه، بدلا من ألا تحصل على أى شئ.

وانقسم الوفد قسمين، وقرر واصف غالى أن ينضم لسعد فى موقفه المتشبث بالاستقلال. وعاد الآخرون إلى مصر تاركين سعدا ومن معه فى باريس، ولم يعد واصف غالى إلى مصر إلا مع زعيم الثورة المتمسك باستقلال بلاده.

• فى قيادة الوفد

لم يبق سعد طويلا فى مصر بعد عودته من باريس، فسرعان ما نفاه الإنجليز مرة ثانية فى ديسمبر ١٩٢١. وقام أعضاء الوفد بتشكيل مجموعة

لقيادة الوفد تتكون من: حمد الباسل، على ماهر، جورج خياط، ويصا واصف، واصف غالى، محمد علوى الجزار، مراد الشريعى، مرقص حنا، على الشمسى[1].

بعد أيام من تولى هذه المجموعة قيادة الوفد قام الإنجليز فى ٢٤ من يناير ١٩٢١ بالقبض على أعضاء هذه الطبقة، ثم أفرجوا عنهم، ثم قبضوا عليهم مرة ثانية. كأنها لعبة القط والفأر.

فى هذه الأثناء واجه الوفد الإنجليز بسلاح مبتكر تماما لم يخطر لهم على بال، وهو سلاح المقاومة السلبية. وأصدر بيانا فى ٢٣ يناير ١٩٢٢ بتنظيم هذه المقاومة وجعلها على نوعين:

١ – عدم التعاون.

٢ – المقاطعة.

ويوضح الرافعى المقصود بعدم التعاون فى كتابه «فى أعقاب الثورة المصرية» بأنه:

– عدم التعاون فيما يتعلق بعلاقات الأفراد ويقتضى قطع العلاقات الاجتماعية مع الإنجليز.

– عدم التعاون السياسى، ومن أجلى مظاهره امتناع السياسيين المصريين عن تشكيل الوزارة مادامت السياسة الحاضرة قائمة.

أما المقاطعة فيقصد بها:

١ – مقاطعة البنوك الإنجليزية.

---

(١) مذكرات فخرى عبد النور، ص ٣٤٤.

٢ – مقاطعة السفن.

٣ – مقاطعة شركات التأمين الإنجليزية.

٤ – مقاطعة التجارة[١].

بعد صدور بيان بهذه التوجيهات للشعب جن جنون الإنجليز فأمروا باعتقال كل من وقع عليه. ولأن السلطات لم تجد ما يدين هؤلاء المقبوض عليهم فقد اضطرت للإفراج عنهم فى ٢٧ يناير ١٩٢٢.

● الحكم بالإعدام

تلاحقت الأحداث بعد نفى الزعيم. ففى فبراير ١٩٢٢ صدر تصريح ٢٨ فبراير الذى يمنح مصر استقلالا منقوصا. وكان من الطبيعى أن يعترض الوفد عليه. وعَيَّن السلطان فؤاد الذى صار ملكا بعد هذا التصريح، عبد الخالق ثروت رئيسا للوزراء، وشكل ثروت لجنة لصياغة دستور فى البلاد. إلا أنه فى الوقت نفسه أدار شؤون البلاد بطريقة ديكتاتورية، فأغلق الصحف، واضطهد المعارضة، ثم قبضت السلطات الإنجليزية على اللجنة المركزية للوفد مرة ثانية. ومن بينهم واصف غالى، فى ٢٥ يوليو ١٩٢٢ وقدمتهم للمحاكمة أمام محكمة عسكرية إنجليزية، وهنا ظهر معدن الرجال المصريين العظماء. فقد رفضوا كل إجراءات المحاكمة، ورفضوا الرد على القضاة، وقالوا لهم جملة شهيرة صارت مثلا «لكم أن تحكموا علينا لكن ليس لكم أن تحاكمونا»، والأهم من

(١) عبد الرحمن الرافعى: فى أعقاب الثورة المصرية، القاهرة، ١٩٦٩، ج ١، ص ٢٩ – ٣٩.

ذلك أنهم احتجوا على المحكمة بأنها غير ذات اختصاص، فبعد إعلان استقلال مصر (طبقا لتصريح ٢٨ فبراير) لا يحق للإنجليز أن يحاكموا المصريين المدنيين أمام محاكمهم العسكرية. وبرغم هذا فقد انتهى الأمر بالحكم على الجميع بالإعدام، لكن الرجال الشجعان المؤمنين بوطنهم لم يهتزوا. فأبدلت القيادة البريطانية الحكم إلى السجن سبع سنوات وتغريم كل منهم ٥٠٠ جنيه، ثم أفرجت عنهم فى ١٤ مايو ١٩٢٣. وهكذا أثبت واصف غالى أنه لا يبالى بالموت فى سبيل وطنه[١].

● معالى الوزير

حين شكل سعد وزارته الوحيدة عام ١٩٢٤ كان من الطبيعى أن يختار واصف غالى وزيرا للخارجية، فالرجل يجيد أكثر من لغة، وعاش فى أوروبا طويلا، ولا يعانى من الإحساس بالنقص أمام الأوروبيين، والأهم من هذا كله أنه وطنى من الطراز الأول.

ويقول الدكتور يونان لبيب رزق فى كتابه «الخارجية المصرية»:

«وقد حظى واصف بطرس غالى بالعدد الأكبر من مرات تولى الوزارة، فقد تولاها فى جميع وزارات الوفد التى تشكلت خلال تلك الحقبة، وكانت خمس وزارات، وزارة سعد زغلول ووزارات مصطفى النحاس الأربع[٢]».

وجاء فى ملفه بوزارة الخارجية:

---

(١) فى أعقاب الثورة المصرية، ج ١، ص ٥٥.

(٢) د. يونان لبيب رزق: الخارجية المصرية ١٨٢٦ - ١٩٣٧، القاهرة، ١٩٨٩، ص ١٠١.

«مثقف ثقافة فرنسية عالية وشاعر وكاتب متميز بالعربية. أصبح فى عـام ١٩١٩ ممثلا غير رسمى للمصالح المصريـة فى باريس، انضم لوفد زغلول.... شـخصية ذات تأثـير بالغ فى الحياة السياسـية المصرية، وعلى درجة عالية جدا من الذكاء، وتؤدى اهتماماته الثقافية المتعددة إلى اعتدال توجهاته السياسـية، متزوج من فرنسية ويؤدى تأثيرها عليه إلى توجهات معادية للإنجليز[1]».

وقـد قـام واصف غالى بدور كبير فى انضمام مصـر إلى عصبة الأمم، وخـاض مفاوضات طويلة امتدت من ١٩٣٠ - ١٩٣٧، كما كان له دور بـارز فى التصدى لمخططات الصهاينة فى فلسـطين بعـد انضمام مصر للعصبة فقد رفض تقسيم فلسطين، وحدد أسباب ذلك فى:

١ - أن التقسيم ينافى حقوق العرب الطبيعية المقدسة.

٢ - أنه يتنافى والعهد الذى قطعته بريطانيا للشريف حسين فى بداية الحرب.

٣ - أن وعد بلفور غير موجب لبريطانيا، مادام العرب لا يقبلونه.

٤ - أن التقسيم لا يحل مسألة السلام فى فلسطين.

٥ - أنه لا يحل المشكلة اليهودية العالمية.

٦ - أنه يخلق دويلات مصطنعة غير صالحة للحياة بين الدول.

٧ - أنه ينشئ دولة على أساس الدين، من أقوام مختلفى الجنسية

٨ - أن مصـر لا تأمـن قيام دولة يهودية مصطنعة من خليط جنسـيات مختلفة بجوارها.

(١) الخارجية المصرية، ص ١٠٢.

واقـترح الوفد المصرى برئاسـة واصـف غالى حلا مـؤداه: أن تعقد بريطانيا معاهدة مع فلسـطين تكفل لها استقلالها، على غرار المعاهدات التـى عقدتها بريطانيا مع غيرها من الأقطـار العربية، وتضمن المعاهدة لبريطانيـا مصالحهـا وللأقليـة اليهودية أيضا مصالحهـا، وتحدد فى المعاهدة الهجرة اليهودية إلى فلسـطين بنسـبة معينـة، كما تحدد حق اليهود فى امتلاك الأراضى[1].

هذه هى الخطوط العريضة لكفاح واصف غالى الذى رفض اعتبار اغتيال والده طائفية من المسلمين ضد إخوانهم المسيحيين، ورفض مؤتمر الأقباط فى أسـيوط لشـبهة الطائفية، وشـارك فى الصف الأول لثورة ١٩١٩، وتعـرض للحكم عليه بالإعـدام، ثم صار صوتها فـى المحافل الدولية خمس مرات.

عريان سعد حتى لا تكون فتنة

فى مارس ١٩١٩ قام الإنجليز بنفى سعد زغلول، وبعد يوم واحد من النفى اشتعلت الإضرابات فى مصر، ومن أقوى الإضرابات كان إضراب طلاب المدارس العليا، ومن بين الطلاب الذين شاركوا فى إضراب مدرسة الطب كان طالب ريفى متحمس اسمه عريان يوسف سعد.

لم يلبث هذا الشـاب أن وجد نفسـه مقبوضا عليه فى القلعة ضمن حوالى مائة وخمسين مواطنا مصريا شاركوا فى الاحتجاج على نفى سعد، وطالبوا باستقلال مصر.

---

(١) الخارجية المصرية، ص ٢٢٤.

وقبل أن نسترسل فى الحديث عن عريان يوسف سعد نتوقف لحظة لنتعرف إليه..

ولد عريان يوسف سعد فى ٢٥ مايو عام ١٨٩٩، فى ميت محسن من أعمال ميت غمر، وكان والده يوسف بك سعد ناظرا للوقف القبطى فى ميت غمر. وواصل عريان تعليمه الثانوى بتفوق مما أهله لدخول كلية الطب، وحين شبت الثورة كان طالبا فى السنة الثانية. وباندفاع الشباب خاض غمار العمل الوطنى.

● نقطة البداية

كانت نقطة البداية فى حياة عريان يوسف سعد السياسية عند جمع التوكيلات لسعد زغلول ليكون وكيلا عن الأمة فى المطالبة باستقلالها، فقد ذهب فى نوفمبر ١٩١٨ مع زميل له فى مدرسة الطب إلى مكتب محام من أنصار الوفد للتوقيع على التوكيل، وكانت هذه التوقيعات فى حينه تمثل تحديا للاحتلال، ولذا كانت تتم سرا، وبعد أن قام بالتوقيع شعر بأنه صاحب قضية، وأن عليه أن يتابعَ الوكيل (سعد زغلول) الذى يدافع عن قضيته، ولذا أحس عند القبض على وكيل الأمة بأن الإنجليز يقفون فى سبيل حصول بلاده على استقلالها، وأن عليه أن يقف فى وجههم، ومن هنا شارك فى الإضراب مع طلبة المدارس العليا.

● سلطنة ميت غمر

بعد خروج عريان من السجن سرت شائعة تقول إن الإنجليز قاموا بنفى الزملاء المفرج عنهم من المعتقل إلى مالطة، وفكر عريان

فـــى مغادرة القاهرة، وبرغم أن المواصلات كانت مقطوعة، والســـلطات الإنجليزية قد قطعت حركة الانتقال من القاهرة وإليها، إلا أنه تمكن من الخروج من القاهرة والوصول لميت غمر، وهناك وجد العجب العجاب. لقد أعلنت ميت غمر الاســـتقلال وجعلت نفســـها ســـلطنة، تماما مثل ســـلطنة مصر، وتربع على عرش الســـلطنة الجديدة رجل يسمى أحمد بك عبده. وشـــكل وزارة من الأعيان، وتحول طـــلاب المدارس الثانوية والعليا إلى جنود يحرســـون البلاد التى اســـتقلت من دون أن يكون لها جيش. لكن المهم أن أهل ميت غمر عرفوا أن ابن بلدهم عريان يوســـف سعد قد اعتقل لأســـباب وطنية، وتغيرت نظرتهم له، واعتبروه بطلا، واستقبلوه بالهتافات والأناشيد. والأهم أنه وجد روحا جديدة فى ميت غمـــر يصفهـــا بقوله: «علمت أن أول مظاهـــرة قامت فى ميت غمر كان يقودها محمود حســـنى وأندراوس رزق المحاميان، وكانت نار الخلاف بين المســـلمين والأقباط لا تزال جذوتهـــا تتقد تحت الرماد الذى خلفته ناره منذ مؤتمر الأقباط الذى عقد فى أسيوط ١٩١٠[1]، والمؤتمر الإسلامى الذى انعقد فى هليوبوليس... أطفأها ســـعد زغلـــول فى قلوب المثقفين وعقولهم... وتحركت المظاهرة من أمام ديوان المركز، وإذا هاتف يهتف يحيا الاستقلال وآخر يقول «ياللا عالكنيسة».

وكان قـــواد المظاهرة يمتطـــون صهوات الخيل، وكانوا من المســـلمين والأقباط، فصاح المســـلمون بالهاتف وخاطبـــوا المظاهرة الهائجة قائلين:

(١) الصحيح: ١٩١١.

إن الحركة وطنية يقوم بها المسلمون والأقباط، وإن أى بادرة تنم عن خلاف بين العنصرين، أو بين المصريين والأجانب ستكون وبالا على الحركة.... وهتف المتظاهرون للاتحاد وطافت المظاهرة شوارع المدينة لم يقع فيها حادث واحد من الاعتداء أو مجرد التعرض لأحد من الأقباط»[1].

• قطع خط السكة الحديد

بعد وصول عريان سعد لميت غمر انعقد مؤتمر خطابى فى المسجد الغمرى خطب فيه شيخ الجامع والقمص يوسف راعى كنيسة الأقباط[2]. وبعد انتهاء الخطبتين صعد الشاب الثائر إلى المنبر وقال للناس: «إن خطر الجنود الإنجليز واحتلالهم للبلدة غير بعيد، وإنهم إن جاءوا فسيكون مجيئهم بالقطارات فيجب أن تتحول المظاهرات إلى عمل يحول دون قدوم الجنود الإنجليز، وذلك بقطع السكة الحديد».

وفى الليل جاء إلى بيت عريان من يناديه، وحين خرج ليرى من الذى يناديه وجد مجموعة من العمال الذين يعملون فى أحد المصانع القريبة تأتى إليه ومعها المعدات اللازمة لخلع قضبان السكة الحديد، ويضعون أنفسهم تحت أمره لتنفيذ اقتراحه، وقاد عريان مجموعة العمال الوطنيين لقطع السكة الحديد ليمنع وصول الآنجليز لبلده. وبالفعل نجح فى خطته إلى حين. حتى وصلت قوة من الجنود النيوزلنديين على ظهور

(١) عريان يوسف سعد: مذكرات عريان يوسف سعد، القاهرة، ٢٠٠٧، ٢٨ – ٢٩.

(٢) يشير هذا إلى أن دور الكنيسة لم يكن قاصرا على القاهرة وحدها، بل امتد أيضا لأقاليم مصر.

الخيـل إلى ميـت غمر للقضاء على الثورة، وطلـب قائد القوة من المأمور أسماء قادة الثورة لكن المأمور الوطنى لم يقدم له شيئا، وأصر على أنه لم يحدث شئ. وانتهت قصة سلطنة ميت غمر فى هدوء.

● عصابة اليد السوداء

كان لثورة ١٩ تنظيم عسـكرى سرى يسـميه الناس «اليد السوداء»، وكانـت مهمة هذا التنظيم القيام بمهمة اغتيال الإنجليز وأعوانهم الذين يسـيرون فى اتجاه مضاد لما يجمع عليه الشـعب، وحَلم الشاب الثائر عريان سعد أن ينضم لهذا التنظيم بعد عودته من ميت غمر.

فى هذا الوقت كان رئيس وزراء مصر هو محمد سعيد باشا، وقرر اثنان مـن طلاب المدارس العليا اغتيال هذا الرجل لأنه قبل تشـكيل الوزارة بعد نفى سعد، إلا أن الخطة انكشفت، وبرغم هذا لم يلبث سعيد باشا أن تعرض لإلقاء قنبلة أخرى عليه فى الإسـكندرية بواسطة طالب أزهرى. والحقيقة أن المصريين فى هذه الفترة كانوا ينظرون لمحاولات اغتيال الخارجين على إجمـاع الأمة نظرة التقديـر والاحترام. ويرون أن الشـباب المتحمس الذى يقوم بها أبطال. كما أن الشـباب كانـوا يرون فى هذه الاغتيالات فدائية، ويستهينون بالسجن والموت ثمنا لها.

وبرغم محاولات الاغتيال فإن التاريخ يذكر لنا أن سـعيد باشـا ترك رئاسـة الـوزراء لخلافه مع الإنجليز حول لجنة ملنـر التى كانت على وشـك أن تزور مصر للوصول إلى اتفاق بعيدا عن سـعد زغلول – يكرس الحماية على مصر.

كان من رأى المصريين ألا يوافق أحد من الساسة على تشكيل الوزارة بعد محمد سعيد باشا حتى يعرف الإنجليز أن المصريين يصرون على:

١ - الإفراج عن سعد.

٢ - ضرورة الموافقة على ذهابه إلى فرنسا للاشتراك فى مؤتمر الصلح الذى انعقد هناك بعد الحرب لتسوية الأمور بين الدول المتحاربة.

٣ - حتمية إنهاء الحماية البريطانية على مصر.

فكر الإنجليز فى فكرة جهنمية يكسرون بها تماسك المصريين وعنادهم، وكانت الفكرة ببساطة هى تولية رئاسة الوزارة لرجل مسيحى، فإذا قتله أحد الثوار المسلمين أشعلوا فتنة طائفية بين المسلمين والمسيحيين كما فعلوا عام ١٩١٠ عند مقتل بطرس باشا غالى. واختاروا لهذه المهمة يوسف وهبة باشا. وأعلن تشكيله للوزارة فى ٢١ نوفمبر ١٩١٩.

ثارت مصر كلها على يوسف وهبة، وكان المسيحيون أشد غضبا على هذا الرجل الذى يريد أن يكسر إجماع الأمة، وأصدر المسيحيون بيانا ضد يوسف وهبة قالوا فيه:

«علمنا أن صاحب المعالى يوسف وهبة باشا قد قبل، فى الظروف القاسية العصيبة التى تجتازها الأمة، أن يقوم بتشكيل الوزارة بعد البلاغ الرسمى الأخير الذى تضمن تمسك الإنجليز بالحماية على مصر. وحيث إنه لا يمكن تفسير هذا القول إلا بقبول الحماية والعمل تحت لوائها ومعاونة لجنة ملنر فى تقرير مصير البلاد.

وحيث إنه يخشى أن يعتبر الإنجليز الذين يسعون جهدهم لتشويه حركتنا الوطنية ووحدتنا القومية قبول الرجل لهذا المنصب بمثابة إرضاء

أقبـاط مصر أو فريق منهم عن وزارته أو عن سياسـة هذه الوزارة أو أى سياسة لا ترمى إلى إنالة مصر استقلالها التام.

وحيث إن وهبة باشـا لم يمثل فى وقت من الأوقات أمانى الأقباط، ولم يشترك معهم فى شعورهم القومى أيا كان نوعه.

وحيـث إنه لا فرق بين مسـلم وقبطى، بل المصريون كلهم شـخص واحـد، ولكن الأقباط يرون أنفسـهم مضطريـن إلى أن يتقدموا بصفتهم أقباطا لإظهار شعورهم حيال هذا الحادث.

لذلك هم يعلنون براءتهم من كل رجل أو هيئة تقبل الحماية أو تساعد على تعضيدها.

فلكل هذه الأسباب يعلن الموقعون على هذا اشتراكهم مع سائر طبقات الأمة المصرية فى الاحتجاج على تشكيل الوزارة الجديدة[1]».

وقد وقع هذا البيان من رجال الدين المسيحى:

- القمص باسيليوس إبراهيم وكيل البطريركية.
- القمص بطرس عوض الله رئيس الكنيسة البطريركية.
- القمص سيداروس غالى نائب رئيس المجلس العام وعضو المجلس الروحى.
- القمص سلامة منصور رئيس المجلس الأعلى الملى الفرعى.
- القمص مرقس سرجيوس.
- القمص عبد المسيح ميخائيل رئيس كنيسة الفجالة.

(١) هدى شعراوى: مذكرات هدى شعراوى، القاهرة، ١٩٨١، ص ٢٠٠ - ٢٠١.

ومن قادة الرأى وأعضاء الوفد:

- سينوت بك حنا.
- ويصا بك واصف.
- فهمى بك حنا ويصا.
- أمين بك خياط.
- شكرى بك بطرس.
- سامى أخنوخ فانوس.
- إبراهيم تكلا.
- وليم مكرم عبيد.
- راغب إسكندر.
- عزيز مشرقى.
- الدكتور إبراهيم فهمى المنشاوى باشا.
- الدكتور نجيب إسكندر باشا.

وتذكر هدى شعراوى فى مذكراتها أن الأقباط لم يكتفوا بهذا البيان بل عقدوا اجتماعا «فى الكنيسة المرقسية الكبرى برئاسة القمص باسيليوس وكيل البطريركية، وقد تناوب فيه الخطباء محتجين على قبول وهبة باشا تشكيل الوزارة، ومعبرين عن تضامنهم مع إخوانهم المسلمين. وقد أرسل المجتمعون برقية إلى يوسف باشا محتجين على قبوله الوزارة[1]».

(١) مذكرات هدى شعراوى، ٢٠٢.

ولم يختلف موقف المسلمين عن موقف إخوانهم المسيحيين. وخطب أحد الأزهريين حول هذا الموضوع، واقتبس الآية الكريمة التى تقول: ﴿ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴿٩﴾ ﴾[1] فى هذه الفترة كان الطالب عريان يوسف قد انضم لجماعة اليد السوداء، وحين رأى يوسف وهبة باشا يقف ضد إرادة الشعب كله قرر أن يغتاله بيده، حتى يكون الاغتيال بيد مسيحية فلا يثير فتنة كما حدث عند اغتيال بطرس باشا غالى على يد شاب مسلم.

كان يوسف باشا يسكن فى شارع الشواربى، وتم رصد حركته، ومعرفة مواعيده، وتبين لأعضاء اليد السوداء أنه يتحرك من بيته يوميا بين التاسعة والتاسعة والنصف، ويمر فى طريق بميدان سليمان باشا (طلعت حرب حاليا) فى طريقه إلى شارع القصر العينى، لذا اختار عريان أن ينتظره فى مقهى ريش، ورتب مع أحد الناضورجية أن يراقب اقتراب السيارة من الميدان فيعطيه إشارة بذلك، وفى يوم ١٥ ديسمبر ١٩١٩، حين كان يوسف وهبة باشا فى طريقه إلى مقر رئاسة الوزراء رمى عريان على سيارته قنبلتين، لكن الرجل لم يمت، والمهم أن عريان يوسف لم يفر، بل وقف مكانه، ليقبضوا عليه حتى يُعرف أن الذى حاول قتله مسيحى منعا لأى لبس أو تأويل. وطلب رئيس الوزراء أن يرى الشاب الذى حاول أن يقتله. فجاءوا له به، ودار بينهما حوار دونه عريان فى مذكراته:

(١) مذكرات عريان يوسف سعد، ص ٩ ، والآية فى سورة يوسف / ٩.

«ابتدرنـــى الوزيـــر (يعنـــى رئيس الـــوزراء) بقوله: بتعمـــل كده ليه يا شاطر؟

– يا سعادة الباشا أنت خرجت على إجماع الأمة.

– دلوقت يا سعادة الباشا وفى الشارع كنت عاوز تقتلنى؟

– ألســـت باشـــا؟ إن أدب الحديـــث يقضى علـــى أن أخاطبك بلقبك، ولست أتملقك.

– لم فعلت ذلك؟

– لقد خرجت على الأمة بقبولك تشكيل الوزارة.

– وكيف تحكم بخروجى على الأمة؟

– أرســـل لـــك البطريرك وفدا من الأعيان يطلـــب إليك ألا تؤلف الوزارة فأبيت مقابلة الوفد، وأرســـلت لك كل الهيئات برقيات تطلب إليك التنحـــى فأبيت، وهذه المظاهرات والإضرابـــات كلها دليل على أن الأمة غير راضية عن تأليف وزارة بعد أن اســـتقالت الوزارة الســـابقة احتجاجا على قدوم لجنة ملنر.

– وما يدريك أننى بقبولى الوزارة لا أعمل ما فيه مصلحة البلاد؟

– لقـــد ذكـــرت التلغرافات التـــى وردت من لنـــدن أن رئيس وزراء انجلـــترا أفضـــى بتصريح فى مجلس العموم عن مهمـــة لجنة ملنر، قال فيه إن الوزارة المصرية ستعمل على تحقيق الأمانى البريطانية فى مصر. والأمانى البريطانية فى مصر ليست هى الأمانى المصرية!

– وإذا لم أؤلف أنا الوزارة، أما كان غيرى يؤلفها؟

– كان يكون مصيره القتل مثلك.

– ما اسمك؟

– عريان يوسف سعد، وأنا طالب طب، وأنا قبطى أردت أن أغسل بدمى ودمك ما وصمت به الأقباط بقبولك للوزارة.

– خذوه[1].

كان عريان يتوقع أن يعذبوه عذابا شديدا، فأخذ معه قرص سليمانى (مادة سامة) ليتخلص من حياته إذا اشتد به العذاب، لكن الضابط الذى فتشه عثر عليه وأخذه، وبدأت التحقيقات، ووقف عريان رابط الجأش، فهو مستعد للموت، وبذكائه لمح فى عيون كل من حوله الإعجاب بما فعله، ولشدة إعجاب المواطنين به انتشرت فى الأسواق صورته يبيعها الباعة فى الشوارع.

وفى السجن فوجئ الشاب الوطنى بما لم يكن يتوقع. هاهو الباشسجان المسلم عبد العال يأتى ليقول له:

«صباح الخير، شد حيلك. إوعى يكون عندك فكر. إنت هنا فى عينينا وربنا يجيب العواقب سليمة!»

ويضيف: «أهل حتتنا حلفونى ميت يمين أسلم لهم عليك، وكنت رايح اضرَب أقدم صاحب لى علشان بيوصينى عليك، هو وطنى أكتر منى؟ يا سلام! شد حيلك[2]».

---

(١) مذكرات عريان يوسف سعد، ص ٤٨ – ٤٩.

(٢) مذكرات عريان يوسف سعد، ص ٥٦.

أمـا موظفـو المحكمة فقد كان لقاؤهم يبعث فى نفسـه الشـجاعة، وأسندوا له البطولة والفداء والشجاعة والإقدام.

وانتهى التحقيق. وتحدد موعد الجلسـة فى ١٦ يناير ١٩٢٠، ووكلت الأسـرة محاميـا إنجليزيا، وتطوع للدفاع عن عريـان محام مصرى آخر هو وهيب بك دوس المحامى. ووقف الشاب الجرىء ثابت الجنان رابط الجأش أمام المحكمة يحاورها، ويدير القفشات فى حواره مع القاضى الإنجليزى، وانتهت المحاكمة بالحكم على عريان يوسـف سعد بالسجن عشر سنوات، وفى السـجن نرى صورة أخرى من صور الوحدة الوطنية. فمأمور السـجن إبراهيم بك صفوت يأتى لزيارة السجين الشاب، ويقدم له علبة سجائر فاخرة، برغم أن السجائر كما يعلم الجميع ممنوعة فى السجون. ويقول له: «ثق بأن كل ضابط فى مصلحة السجون سيبذل لك كل مساعدة، وثق بأنك لن تقضى من هذه السنوات العشر شيئا فى السجن[1]».

وبالفعل لم يقض عريان يوسف سعد فى السجن إلا حوالى أربع سنوات، فقد أفرج عنه فى فبراير ١٩٢٤ حين شـكل سـعد باشا وزارته. لكن اسم عريان يوسف سعد دخل التاريخ المصرى بحروف من نور لأنه كان حريصا على وحدة أبناء وطنه، ورضى أن يضحى بروحه من أجلها.

سينوت حنا النائب الحر الجرىء

هذه شخصية من طراز فريد، مناضل من الطراز الأول، عرفه التاريخ المصـرى قبل ثورة ١٩١٩، لكنه تألق وصار نجما فى ظل هذه الثورة من خلال دوره فيها وعلاقته بزعيمها.

(١) مذكرات عريان يوسف سعد، ص ٧٢.

ولد سينوت حنا عام ١٨٧٤ لأسرة من أكثر الأسر المسيحية ثراء بأسيوط، وهذا العام من الأعوام الخصبة فى تاريخ مصر فقد ولد فيه مصطفى كامل زعيم الأمة، والخديوى عباس حلمى الثانى الذى حاول أن يصلح ما فعله أبوه (توفيق) ويعيد لمصر استقلالها، وساهم فى إحياء الحركة الوطنية.

كان سينوت أحد ثلاثة أبناء لمع اثنان منهم فى الحياة العامة، أما الأخ الآخر الذى لمع معه فهو بشرى حنا. لكن بشرى كان محافظا فى بدايته حرصا على ثروة الأسرة ومصالحها، حتى شبت ثورة ١٩١٩، وذهب بشرى إلى الفيوم فى زيارة عمل فوجد مظاهرة فى انتظاره للترحيب به، وحمله الناس على أكتافهم لمجرد أنه أخو سينوت. وعندما التقى بأخيه بعد ذلك بأيام قال له:

– كنت على حق يا أخى. لا تتصور كيف يستقبلنى الناس الآن عندما أصل إلى الفيوم. قبل ذلك، وفى أيام الأزمة بيننا وبين إخواننا، كنت أطلب من الحكمدار أن يرسل معى جنديا، وينبه على العمدة بضرورة حراستى. مضى ذلك والحمد لله[1]».

لكن دور سينوت حنا الوطنى لم يبدأ مع ثورة ١٩١٩، بل بدأ قبل ذلك بكثير، فهاهو يأتى إلى القاهرة، ويصادق مصطفى كامل رئيس الحزب الوطنى وكبار رجال الحركة الوطنية المصرية، ويكتب فى الصحف مناديا بالاستقلال، ويقف ضد كل محاولات التفرقة بين أبناء الوطن الواحد من مسلمين ومسيحيين كما سنرى.

(١) د. حسين مؤنس: دراسات فى ثورة ١٩١٩، القاهرة، ١٩٧٦، ٢٠٩ – ٢١٠.

• محاولة إنشاء بنك مصرى

يسجل التاريخ أن أول من حاول إنشاء بنك مصرى هو محمد على باشا، وأن رأس مال هذا البنك كان سبعمائة ألف ريال مصرى، دفعت منه مصر أربعمائة ألف ريال، وشارك اثنان من رجال المال الأوروبيين بالمبلغ الباقى، إلا أن هذا البنك جرى عليه ما جرى على جميع مشروعات محمد على بعد هزيمته من القوى الكبرى، حيث يصمت التاريخ عن ذكر نهاية هذا البنك.

ظهرت الفكرة مرة ثانية على يد أمين شميل فى عهد الخديو إسماعيل، وظهرت محاولة أخرى أثناء الأزمة المالية. بادر المصريون بطرحها لمواجهة الموقف السياسى الذى جد على مصر عام ١٨٨٢، لكن هذه المحاولة باءت بالفشل مثل المحاولات السابقة.

برغم هذا الفشل إلا أن بعض الأفراد من المصريين حاولوا إقامة بنوك صغيرة فى محافظاتهم لمواجهة السيطرة الأجنبية على الحياة المصرفية فى مصر. ومن هؤلاء كان سينوت حنا وأخوه بشرى. يقول الدكتور رءوف عباس فى تقديمه لكتاب «علاج مصر الاقتصادى» الذى ألفه طلعت حرب ليدعو فيه لإنشاء بنك مصرى:

«جازف بعض المصريين فى أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين بالعمل فى ميدان العمل المصرفى، منهم منصور باشا يوسف، والديب، وحفنى بالإسكندرية، وبشرى وسينوت حنا، وعائلة ويصا بأسيوط، وكانوا يقبلون الودائع ويقرضون العملاء، ويحولون الأموال،

قبل قيام البنوك المساهمة الأجنبية، غير أنها عجزت عن منافسة تلك البنوك، وما لبثت أن اختفت من الساحة، وفضل أصحابها الاشتغال بالتجارة[1]».

هكذا نرى سينوت وأخاه يحاولان تقديم مشروع وطنى كبير لخدمة الاقتصاد الوطنى، لكنهما يفشلان أمام البنوك المساهمة الأجنبية، لكن برغم الفشل يبقى للأخوين بشرى وسينوت شرف المحاولة.

● المؤتمر القبطى

تحدثنا من قبل عن قصة اغتيال بطرس باشا غالى والمؤتمر القبطى، وبينا كيف استغل الإنجليز الفرصة وحولوا الأمر من حادث اغتيال سياسى إلى حادث اغتيال قام به شاب مسلم ضد رجل مسيحى لتكون المسألة طائفية، وكيف انتهى الأمر بعقد المؤتمر القبطى فى أسيوط لمناقشة مشاكل المسيحيين المصريين، فى ٦ مارس ١٩١١. ونضيف إلى ما سبق أن أخنوخ فانوس وهو أحد أصحاب الفكر المتشدد حاول أن يقفز لرئاسة المؤتمر، لكن العناصر المسيحية المعتدلة سيطرت على الأمر، وكان لابد من رجال عقلاء يقودون السفينة لبر الأمان حتى لا يكون المؤتمر سببا لأية أضرار تصيب الوحدة الوطنية، وهنا برز فى الصورة رجلان هما بشرى حنا (رئيسا للمؤتمر) وأخوه سينوت (سكرتيرا عاما للمؤتمر). وإذا بهما يرفعان علم مصر على مكان المؤتمر، ويبدآن الفعاليات بعزف

(١) د. رؤوف عباس: مقدمة كتاب طلعت حرب (علاج مصر الاقتصادى) القاهرة، ٢٠٠٢، ص ١٥.

السلام الخديو، وينتهيان بإرسال برقية للخديو عباس حلمى الثانى يؤكدون له فيها ولاء المجتمعين ويقول عبد القادر حمزة الذى حضر المؤتمر: «أعجبنى من خطب المؤتمر أنهم ضربوا فى أقوالهم على نغمة اتحاد المسلمين والأقباط». وفى يوم الافتتاح فى ٦ مارس ١٩١١ حرص المجتمعون للمؤتمر على تأكيد الانتماء الكامل للوحدة الوطنية[١].

ومن اللافت للنظر عند قراءة أحداث هذا المؤتمر:

١ – إنه لما ترددت نظارة الداخلية فى الموافقة على المؤتمر عارضها الحزبان الرئيسان فى ذاك الوقت، وهما: الحزب الوطنى وحزب الأمة.

٢ – إن بعض المسيحيين كان رافضا لفكرة المؤتمر، ومنهم واصف غالى وويصا واصف.

٣ – إن البطريرك كيرلس الخامس لم يكن متحمسا للاشتراك فيه[٢].

٤ – إن الإنجليز كانوا يؤملون أن ينتهى هذا المؤتمر بنتائج تسهم فى تعميق حدة الخلاف بين المسلمين والمسيحيين.

٥ – إن بعض المسيحيين المتشددين هاجموا سينوت بعد المؤتمر وسموه هو وويصا واصف وواصف غالى (اللذين رفضا المؤتمر) بجماعة يهوذا نسبة إلى يهوذا الإسخريوطى الذى خان السيد المسيح[٣].

---

(١) لمعى المطيعى: هذا الرجل من مصر، القاهرة، ١٩٧٧، ص ١٨٩.

(٢) د. مصطفى الفقى: الأقباط فى السياسة المصرية، القاهرة، ١٩٨٨، ص ٤٢– ٤٣، ولمعى المطيعى: هذا الرجل من مصر، ص ١٨٩.

(٣) هذا الرجل من مصر، ص ١٨٩.

من خلال ما سبق يمكن أن نتصور الدور الذى قام به بشرى وسينوت حنا لكى يخرجا بالمؤتمر، بل بالعلاقة بين المسيحيين وإخوانهم فى الوطن، إلى بر الأمان. وهذا الدور الذى لعبه سينوت قبل ثورة ١٩١٩ لا شك أنه مؤشر جيد للدور الذى لعبه أثناء الثورة.

• فى الجمعية التشريعية

قبل ١٩٢٣ لم يكن فى مصر برلمان منتخب على أساس حزبى، بل كانت هناك جمعية تشريعية مهمتها سن القوانين، وفى عام ١٩١٣ تم اختيار سينوت حنا عضوا بهذه الجمعية، وكان سعد وكيلها المنتخب، ومن هنا بدأت العلاقة بين الرجلين. لكن ليس معنى هذا أن سعدا لم يلتق بسينوت قبل هذا التاريخ فقد قابله لأول مرة عام ١٩٠٨، حين كان سعد وزيرا للتعليم وقام برحلته للصعيد.

• ثم قامت الثورة

انضم سينوت للثورة منذ بدايتها، وحين قرر الوفد السفر إلى باريس لعرض مطالب مصر كان واحدا من أعضاء الوفد، ولم يلبث أن دب الخلاف بين أعضاء الوفد كما أسلفنا، ووقف سينوت إلى جانب سعد دون تردد.

وفى أكتوبر من عام ١٩٢١ قرر سعد القيام برحلة إلى الصعيد، وانزعجت الحكومة انزعاجا شديدا، فشعبية سعد وخطبه التى سيلقيها فى الجماهير ستسبب لها المشاكل، لذلك نبه عبد الخالق ثروت باشا،

رئيس الوزراء ووزير الداخلية، على مديرى المديريات بإفشال الرحلة مهما كانت الوسائل. بل أرسل عددا من رجال الإدارة فى قطار خاص يسيرون مع الرحلة خطوة بخطوة بهدف إفشالها.

وكانت بداية المشاكل فى أسيوط، فقد أذاع مديرها بيانا قبل أن يبدأ سعد رحلته هدد فيه الأهالى بإطلاق الرصاص عليهم إذا هم تظاهروا أو هتفوا لسعد، وكان لابد من وقوع المواجهة بين سينوت والمدير، وكتب سينوت مقالا ضمن سلسلة مقالاته التى كان يكتبها بعنوان «الوطنية ديننا والاستقلال حياتنا» جاء فيه:

«أتتوعدنا أيها المدير بالإعدام؟ أفتظن أن أهالى مديرية أسيوط جبناء يخافون وعيدك وهم يعلمون أنهم لم يرتكبوا إثما يعاقبون عليه؟ اسمع إذن. سأكون أنا أول هاتف للاستقلال التام. سأكون أول منادٍ بصوت عالٍ بسقوط الحماية. فإذا كان لديك رصاص تضرب به من يرتكب جريمة الاستقبال وجريمة هذا الهتاف، فسيكون صدرى أمامك يتلقى أول رصاصاتك».

يقول فخرى عبد النور فى مذكراته إن هذه الكلمة استفزت حمية أهل الصعيد فأقبلوا يتحدون الحكومة. ولم يكتف سينوت بمقاله، بل ذهب للقاء سعد ومعه فخرى عبد النور ليلحا عليه فى الإسراع بالرحلة، حتى وافق سعد. لكن خطة الحكومة نجحت فى منع سعد من النزول من سفينته. وعاد الزعيم من رحلته دون أن ينزل إلى البر إلا فى تفتيش البكوات بشرى حنا وراغب حنا، أخوى سينوت[1].

(١) مذكرات فخرى عبد النور: ص ٢١١ – ٢٧٠.

• فى المنفى

نفى سعد للمرة الثانية فى نهاية عام ١٩٢١، وقبل النفى وجه الإنجليز إنذارا لسعد بعدم إلقاء خطب، وعدم حضور المجتمعات العامة، أو الكتابة فى الصحف السيارة، أو الاشتغال بالسياسة، وضرورة مغادرة القاهرة والإقامة بالريف، كما أمروا عددا من أصحابه، ومنهم سينوت بالتوجه إلى بلادهم للإقامة بها وعدم التدخل فى الشؤون السياسية[1] لكن الجميع رفضوا الإنذار، وحينئذ تفاهم الإنجليز مع زعيمهم. ولندع فخرى عبد النور يروى لحظة وصول الإنذار كما رآها. يقول فخرى فى مذكراته:

«فى هذه اللحظة جاء سينوت بك وهو يضحك... وكان من أغرب المناظر أن كل الذين جاءتهم الكتب (الإنذارات) كانوا باسمين غير مهمومين، فى حين أننا نحن الآخرين كنا عابسين. وكانت أول فكرة لى بعد ذلك أن سألت:

– هل كتاب الرئيس ككل الكتب؟

فأجاب سينوت بك: نعم، ولكنه أوسع منها حَجرا.

فقلت: وعلى أى شئ عزمت أنت؟ ومتى تسافر إلى عزبتك؟

فوقف أمامى وقد سطع بريق عينيه وقال بشدة: ماذا؟ أنا أخضع للأمر؟

ثم رفع يده اليمنى مشيرا بها إشارة الإباء وقال: كلا لن يكون هذا. سمعت منه هذا الجواب فأعجبتنى شهامته، ولكنى أحسست قلقا بداخلى فقلت:

(١) فى أعقاب الثورة المصرية، ج ١، ص ٢٦.

– لا تدع ثورة فكرك الأولى تملكك إلى النهاية.

فما زاد على أن هز رأسه بسرعة هزة الرفض وابتسم وأجاب بتلك الحماسة المتدفقة التى يعرفها فيه كل أصدقائه:

– لا. لا أبدا. أسافر إلى عزبتى مكرها كما سافرت من قبل. لكنى لا أسافر إليها خاضعا مطيعا»[1].

ورفض سينوت الإنذار، وقبل النفى، وظل فى المنفى حتى سبتمبر ١٩٢٣، وبرغم قربه من سعد إلا أنه لم يحصل أبدا على أية مناصب، لا فى ظل سعد ولا فى ظل النحاس، فقد كان الرجل زاهدا فى المناصب، واكتفى بأن رأى حلمه يتحقق بوصول الوفد للحكم، وفوزه بالأغلبية البرلمانية.

● فداء للنحاس

فى عام ١٩٣٠ صعد إسماعيل صدقى للحكم، وتولى تشكيل الوزارة، وكان الرجل يرى أن حكم الوفد يمثل حكم الغوغاء، وأن أمور البلاد يجب ألا تكون فى أيدى الغوغاء، بل يجب أن توكل للنخبة، ومن هنا فحين تولى الوزارة رأى أن يغير كل شىء، وكان من أهم الأشياء التى غيرها الدستور، فقد ألغى دستور ١٩٢٣ الذى كان يعتبر أن الأمة مصدر السلطات ووضع بدلا منه دستور ١٩٣٠ الذى يجعل الملك مصدر السلطات، وثارت الدنيا على الرجل، واندلعت المظاهرات، ولم يكف الشباب عن الاحتجاج، وفى ظل هذه الأزمات المشتعلة قرر النحاس أن يقوم بزيارة لقواعده الجماهيرية، واختار مدينة المنصورة ليزورها،

(١) مذكرات فخرى عبد النور، ص ٣٢٣.

وكان فـي صحبته رفيق النضال سـينوت حنا، وركب الرجلان سـيارة مكشوفة ليتمكنا من تحية الجماهير.

كان صدقـي قد قرر أن يتخلص من النحـاس بخطة دنيئة، مؤداها أن ينقـض جندى فى الزحام ليطعنه طعنة قاتلة وينتهى الأمر، وأثناء الموكب تقـدم الجنـدى الخائن ليطعن النحاس، وجاءه مـن حيث لا يراه، وحين اقترب منه رآه سـينوت ودون تفكير قـرر أن يفدى زعيمه وصديقه وزميله فى الكفـاح، فتصدى بجسـمه للطعنة، فأصابه الجنـدى فى ذراعه، ولم يلبث أن رحل سـينوت عن دنيانا من أثر الإصابة فى يوليو ١٩٣٠ مفتديا صاحبه بنفسه، ضاربا لنا المثل فى الوفاء بين الأصدقاء، وشركاء الجهاد.

● فخرى عبد النور

قبـل أن أتحدث عن فخرى عبد النور ودوره فى ثورة ١٩١٩ ينبغى لى أن أذكـر أن مذكراته مـن أهم مصادر التاريخ المصـرى المعاصر التى تتحدث عن هذه الثورة، وأنها من أهم المصادر لمن يحب أن يتعرف إلى دور المسـيحيين فى الكفاح الوطنى إلى جانب سـعد زغلول، ومما يعطى هذه المذكـرات قيمة كبرى أن فخرى عبد النور كان أحد زعماء الثورة، وطرفا فـي الأحـداث، وكثيرا ما يـروى الأحداث باعتبـاره حاضرا، ومشاهدا، وليس باعتباره ناقلا.

وسـنعتمد فى كتابتنا عن فخرى عبد النـور على مذكراته باعتبارها أدق ما كتب عنه. خصوصا وأن ما بها من وقائع لا يختلف مع ما جاء لدى الرافعى مؤرخ الثورة.

ولد فخرى عام ١٩١٩بجرجا فى يونيو ١٨٨١، وسبب تسميته بهذا الاسم أن محمود باشا فخرى (الذى تقلد وزارة الخارجية فى وزارة توفيق نسيم) كان فى زيارة للصعيد، وجاء لزيارة والده أثناء ولادته فسماه باسمه تكريما لهذه الزيارة واحتفاء بالزائر الكريم[1].

ولا شك أن الفترة التى ولد فيها فخرى عبد النور كانت من أصعب الفترات التى مرت بمصر، فالاحتلال قد جثم على أنفاس مصر، ونفى زعماء الثورة العرابية، وحبس أنفاس الباقين تحت سطوة قوته، وتواطأ الخديو توفيق. لكن شيئا جديدا حدث عام ١٨٩٢ إذ توفى الخديو وتولى بدلا منه ابنه الشاب عباس حلمى الثانى، وكان وطنيا متحمسا، ودخل فى مصادمات مع الإنجليز، واكتشف مصطفى كامل، وشجعه على استكمال دراسته فى فرنسا، وعلى الدعوة للقضية المصرية فى أوروبا، كما أن عباس حلمى الثانى لم يتورع عن تشكيل الجماعات السرية لمقاومة الاحتلال، وكان هو نفسه عضوا بجمعية سرية مع مصطفى كامل وأحمد لطفى السيد وغيرهما.

أشاع وجود عباس حلمى روحا جديدة لدى الشباب، ومن بين هؤلاء الشباب كان فخرى عبد النور. ومن الواضح أن ثروة أسرة عبد النور، ومكانتها الاجتماعية بالصعيد أتاحا له صلة طيبة بالخديو الشاب، لذا نرى عباس حلمى يزوره فى بيته بجرجا عند زيارته للصعيد عام ١٩٠٩، وينعم عليه برتبة المتمايز الرفيعة، وعلى أخيه لبيب بالبكوية من الدرجة الثانية.

(١) مذكرات فخرى عبد النور، ص ٣٨٢.

ولا شـك أن عزل الخديوى عباس حلمى على يد الإنجليز مع بداية الحرب العالمية الأولى كان صدمة للشـباب الوطنى، لكن المصريين برغم كل شـئ تحملوا الصدمة علـى أمل أن تمنحهم إنجلـترا حريتهم بعد الحرب، وحين راوغت إنجلترا شبت الثورة.

ويذكـر التاريخ أن فخـرى عبد النور كان واحـدا ممن لاحظوا عدم وجود مسـيحيين فى التشـكيل الأول للوفد، فذهب هو وويصا واصف، وتوفيق أندراوس لطلب ضم مسـيحى أو أكثر للوفـد. لكن هذا اللقاء لم يكن اللقاء الأول بين فخرى وسـعد، فقد قابله بجرجا عام ١٩١٠ حين كان سـعد ناظرا للحقانية، وذهب إلى الصعيد فى جولة تفتيشـية على المحاكم، فاستقبله فخرى بمنزله بجرجا. ومنذ هذا الحين ارتبط فخرى بسعد بعلاقة طيبة.

• فى قيادة الوفد

طلب سعد عند مغادرته مصر ١٩١٩ أن يشكل الوفديون لجنة مركزية للوفد، وبالفعل تشـكلت اللجنة برياسـة محمود سـليمان باشا، وكان وكيلها إبراهيم سـعيد باشا، وسكرتيرها: عبد الرحمن فهمى بك، ومن أعضائهـا فخرى عبد النور. وقد ظلت هذه اللجنة مسـؤولة عن شـئون الوفد حتى عودة سعد من أوروبا فى ٤ أبريل ١٩٢١[1].

وربما لا يتخيل البعض خطورة العضوية فى هذه اللجنة، فهى اللجنة التى سـتقود الكفاح ضد المحتل الإنجليزى فى غيبة سـعد، وهى التى

(١) مذكرات فخرى عبد النور، ص ٧٤.

ستربط بين سعد والوطن، والمسؤولة عن توصيل أخبار الوفد أثناء وجوده فى أوروبا للشعب المصرى، والمنوط بها جمع التبرعات للإنفاق منها على نشاط الوفد فى الداخل والخارج، أى أن أعضاء هذه اللجنة باختصار هم العدو الأول للإنجليز، أصحاب السلطة الوحيدة فى مصر فى هذه الفترة. وبرغم هذا فإن فخرى عبد النور لم يتردد فى قبول عضوية اللجنة. بل إنه قام بنفسه بدور ملحوظ فى جمع التبرعات من جرجا، فجمع بالاشتراك مع سلامة بك ميخائيل ألفى جنيه من مواطنى جرجا[1]. وهذا مبلغ جسيم بالنسبة لعام ١٩١٩، يساوى الملايين بأسعار اليوم، حيث كانت قيمة الجنية المصرى تساوى جنيها ذهبيا، أو أكثر قليلا.

وكان أول من واجه غضب الإنجليز هو عبد الرحمن بك فهمى سكرتير لجنة الوفد، فقد ألقت السلطات الإنجليزية القبض عليه مع آلاف الشباب من طلاب المدارس العالية والمحامين بتهمة تشكيل جمعية للمقاومة باسم «جمعية الانتقام» وقررت محاكمتهم أمام محكمة عسكرية عليا، عقابا لهم على دورهم فى مقاطعة لجنة ملنر. وبثا للرعب فى نفوس المفاوضين، وشل حركة لجنة الوفد.

وملنر هذا هو وزير المستعمرات البريطانى الذى كان يمثل بريطانيا فى المفاوضات مع الوفد، أما لجنة ملنر فهى اللجنة التى جاءت إلى مصر لتعرض مشروعا لاستمرار الحكم على مصر، لكن المصريين قاطعوها لأنهم فوضوا سعدا للحديث باسمهم من أجل الاستقلال، ورفضوا أى

(١) مذكرات فخرى عبد النور، ص ٧٩.

محاولة لضرب هذا التفويض، ولهذا لم يجد ملنر عند مجيئه إلى مصر من يفاوضه، وعاد بخفي حنين.

احتج سعد على القبض على رجال الوفد أثناء وجوده فى أوروبا، وكلف اثنين من كبار المحامين الإنجليز للدفاع عن المتهمين، وهب عدد كبير من المحامين المصريين للدفاع عن المقبوض عليهم، وفى هذا الخضم كلف الوفد فخرى عبد النور بأن ينوب عن الوفد فى حضور جلسات المحاكمة، وبدأ الرجل فى تنفيذ ما كلف به.

ولفت حضور صاحبنا نظر رجال البوليس فقبضوا عليه عند انصرافه من المحكمة ذات يوم. وأخذوه إلى سجن يسمى سجن التخشيبة، ثم اقتادوه لمقابلة رسل باشا حكمدار بوليس القاهرة للتحقيق معه، ولم يهتز الرجل أمام الحكمدار الإنجليزى بل قال له بكل ثبات: «إننى مصرى قبل كل شئ، وهؤلاء المتهمون مصريون مثلى أعرف أنهم أبرياء فيجب أن أهتم بهم وبمصيرهم. ثم إننى عضو فى لجنة الوفد المركزية، وكبير المتهمين فى القضية سكرتير هذه اللجنة، فكيف لا أهتم به؟ وكيف لا أواظب على حضور الجلسات؟ وفضلا عن ذلك فإن بعض المتهمين من أبناء الصعيد الذين تربطنى بهم وبأسرهم صلات قوية[1].

ولم يجد رسل باشا ما يدين الرجل فقرر الإفراج عنه، لكنهم سحبوا منه بطاقة حضور الجلسات فعارض فى ذلك حتى ردوها إليه. وحدث أن اختفى شهود الإثبات فظن الإنجليز أن فخرى عبد النور خبأهم

(١) مذكرات فخرى عبد النور، ص ٨٩.

فى بيته، فهاجموا البيت وفتشوه، لكنهم لم يجدوا شيئا. وقام أحد الشهود التابعين للإنجليز باتهام فخرى بأنه أغراه على إنكار الشهادة، وأنه شرع فى تسميم الشهود الآخرين. لكن من أروع المشاهد فى هذه القضية أن وقف رجلان مسلمان لينفيا عنه الاتهام، هما الشافعى البنا ومحمد بدر.

● فى استقبال الزعيم

وفى مارس ١٩٢١ بدأ رجال الوفد فى مصر الاستعداد لاستقبال سعد باشا بعد أن انتهت مفاوضاته فى أوروبا، وتم تقسيم العمل، وكان فخرى عبد النور مسؤولا عن لجنة السكك الحديدية. فقام بتدبير القطار الذى أقل زعيم الأمة من الإسكندرية إلى القاهرة. ولم تكن هذه مهمة سهلة. فالإنجليز لا يريدون استقبال سعد باعتباره بطلا، ويعرفون أن هذا القطار الخاص سيتوقف فى كل المحطات ليحيى سعد الحشود التى ستحتشد لتحيته، لذلك ماطلوا فى إجابة الطلب حتى تمكن فخرى من الوصول إلى عدلى باشا يكن، رئيس الوزراء، وخصم سعد العتيد، وإقناعه بالسماح للوفد باستئجار قطار يقل الزعيم من الإسكندرية إلى القاهرة. ولم يكتف فخرى بهذا بل أعد قطارا آخر لنقل الطلبة من القاهرة إلى الإسكندرية والعودة. وكان هذا الدور من أهم أسباب نجاح استقبال الزعيم.

● الطبقة الثالثة

لم يلبث سعد طويلا فى مصر حتى بدأت المشاكل التى انتهت بنفيه هو ومجموعة من أصحابه، وبعد النفى صعدت الطبقة الثانية من

الوفـد لتتولى إدارة الكفاح، لكن المحتل ألقى القبض على قادة الوفد من أعضاء هذه الطبقة، وعلى الفور تشكلت قيادة جديدة للوفد تسمى الطبقة الثالثة بقيادة المصرى السـعدى بك، وعضوية السـيد حسين القصبى، والأسـتاذ محمد نجيـب الغرابلى، وسـلامة ميخائيل بك، والأسـتاذ مصطفى القاياتـى، وفخرى عبد النور. ولم يخـش القادة الجدد مصير زملائهم السابقين من أعضاء الطبقة الثانية، فأصدروا بيانا ناريا للشعب يقولون فيه «إلى الأمام أيها المصريون».

فى هذه الأثناء كانت آلاف المنشـورات موجودة ببيت الأمة، وتوقع طاهر بك اللوزى أن تقوم السلطات بتفتيش البيت، وتحدث مع فخرى فى هذا الشـأن، فقرر فخرى أن يفتدى بيت الأمة وسـيدته بنفسـه، وأتى بعربة ونقل المنشـورات من بيت الأمة إلى بيته بالعباسية، وفكرت السـيدة زوجته فـى التخلص من هذه المنشـورات، فأخذتها إلى المطبخ وبـدأت فى حرقها، ومن الواضح أن بيت فخـرى كان تحت الرقابة، فلـم تلبث القوات أن هاجمته وقامت بتفتيشـه، وتوجه الضابط المكلف بالتفتيش (اليوزباشـى محمد سـليمان صدقى) نحـو المطبخ للبحث عن المنشورات، وهناك وجد السيدة الجليلة تقوم بحرقها، ونظر اليوزباشى للمرأة مندهشـا، وبثبات نادر واصلت المرأة عملها، ونظرت له قائلة فى جرأة وشـجاعة: «أنا أعتقد أن وطنيتك لا تقل عن وطنيتنا، وإخلاصك لبلادك لا يقل عن إخلاصنا لبلادنا فافعل ما تشاء[1]».

(١) مذكرات فخرى عبد النور، ص ٣٥٤.

وترك اليوزباشـى الوطنى المرأة تكمل حرق المنشورات دون أن ينزل بها أى ضرر.

• فى السجن

ولم يطـل انتظار فخرى لمواجهة الإنجليز، فقد قبضوا عليه وأودعوه السـجن فى ١٤ أغسطس ١٩٢٢، وكانت التهمة الموجهة إليه فى غاية الغرابة، وهى تهمة الاعتداء على مستر براون مدير قسم البساتين بوزارة الزراعة، واقتادوه إلى السـجن هو والشـيخ مصطفـى القاياتى، ومحمد نجيب الغرابلى، أعضاء الطبقة الوفدية الثالثة، بالإضافة إلى النقراشى، وحسن يس، وعبد الستار الباسل، والدكتور نجيب اسكندر.

ومـا يجعلنا نتعجب من هذا الاتهام هو أن فخرى عبد النور لم يكن عضوا فى التنظيم السـرى للوفد الذى كان يتبنى فكرة الكفاح المسـلح، لكن يبدو أن الإنجليـز كانوا يقصدون القبض على أعضاء الطبقة الثالثة للوفد لوقف مسـيرة الجهاد، إلا أن الأسمـاء التى وصلتهم لأعضاء هذه الطبقـة لم تكـن دقيقة تماما. وقد ثبت أن الاتهام غير قائم على أسـس صحيحـة فأفرج عن الجميـع. لكن فخرى بالتحديـد كان آخر المفرج عنهم. فلم يفرجوا عنه إلا فى ٣ فبراير ١٩٢٣.

ومـن الطريف أن نعرف أنـه قد طلب إلى فخرى أثنـاء وجوده فى السـجن أن يتوجه بالشـكر للجنرال اللنبى عند خروجه، لكن الرجل صاحب النفس الوطنية أبى، وخرج من السجن إلى بيت الأمة قبلة الثوار فى هذا الوقت.

• السجن مرة أخرى

بعد حوالى شهر واحد من الإفراج عنه قبضوا عليه مرة ثانية فى ٦ مارس ١٩٢٣، وكان معه هذه المرة كل أعضاء الطبقة الثالثة من الوفد، وكالعادة أفرجوا عن الجميع عدا فخرى، وكانت حجة الإنجليز أنه متهم فى قضية جنائية، وقد زاره فى السجن توفيق دوس وقال له:

– إلى متى يستمر اندفاعك؟ إنى أضمن لك الإفراج عنك بشرط أن تعلن أنك طلقت السياسة.

ورد فخرى بإباء برغم السجن قائلا: هذا لا يمكن مهما تكن النتائج.

وفى اليوم التالى ذهب إليه مستر ديللينى مراسل شركة رويترز وتحدث إليه فى هذا الشأن فلم يجد أية فائدة. وأصيب فخرى بمرض جلدى نتيجة عدم النظافة فى السجن، وحجز بعنبر المصابين بالأمراض الجلدية، وما أكثرهم فى السجون، فكان هذا مبعثا شديدا للألم النفسى للرجل ابن الأكابر الذى تعود طوال عمره على النظافة. ووصلت الأمور ذروتها حين لجأ المسئولون عن السجن لتخويفه بالقتل، فقد حذره أحد جنود السجن من الخروج من الزنزانة لأن الضابط الإنجليزى انجرام (وهو ضابط إنجليزى فى البوليس المصرى مشهور بالغلظة والقسوة) يرتب لأن يحتك به زكى حنفى المغربى، الشاهد الذى اتهمه من قبل زورا. ثم جاءه انجرام مهددا، قائلا:

– أما آن لك أن تقول؟

– ماذا أقول؟

فأخـرج ورقة من جيبه وأخذ يتلو ما كتـب فيها وهو تصريح صادر من اللورد اللنبى بأن يفعل فيه ما يشـاء. هو والشـيخ مصطفى القاياتى. فقال له فخرى:

– وماذا تريد؟ ألسنا فى السجن؟

وأمسـك فخرى بالمصحف والإنجيل. وقال لانجـرام: هذان فيهما العبر. وفى تلاوتهما عزاء للمظلومين.

ووصـل الأمر إلى أن طـرح أحد النواب الإنجليز سـؤالا فى مجلس العموم البريطانى عن سبب بقاء فخرى عبد النور فى السجن. ولم يجد المسـئول فى وزارة الخارجية بدا من قول الحقيقة. وهى أن التحقيقات لم تسفر عن إدانة السجين

وأخـيرا تم الإفراج عن فخرى فى ١١ يونيـو ١٩٢٣ بعد حبس دام ثلاثة أشهر وستة أيام.

● بعد عودة الزعيم

وواصـل فخرى الكفاح بعـد الإفراج عنه حتى عاد سـعد من منفاه فشـكل هيئة وفديـة تضم رجالا من كل الطبقات الوفدية لتقود مسـيرة الكفاح. وكان من بين أعضائها فخرى عبد النور.

شـهد عام ١٩٢٣ أحداثا بالغة الأهمية، منها عودة سـعد، وصدور الدستور، وإجراء أول انتخابات برلمانية نزيهة، فاز بها الوفد، وكان من بين الفائزين باسم الوفد النائب فخرى عبد النور عن دائرة جرجا.

ولشـدة حب فخرى لسعد فقد أسمى أحد أبنائه باسمه، وقد قابلت هذا الابن الذى ظل وفيا لذكرى سعد حتى آخر يوم فى حياته. ولمست مدى حبه وإخلاصه بنفسـى، كما لمسـت إيمانه بمبادىء الوفد وأهمها «الدين لله والوطن للجميع».

وفـى ديسـمبر ١٩٤٢ توفـى فخرى عبـد النور وهو يـؤدى واجبه فى البرلمان، بعد حياة حافلة قضاها كلها فى النضال من أجل الوطن.

● **ويصا واصف محطم السلاسل**

وهـذا فـارس آخر من فرسـان الوطنية فى ثـورة ١٩١٩، إنه ويصا واصف الصعيدى، ابن طهطا، المولود فى ١٢مارس عام ١٨٧٣ لأسرة من أكبر الأسر فى الصعيد.

كان مهتما بالكتابة الصحفية مثل سينوت حنا، وطالما كتب مقالات ناريـة يطالب فيها بذهاب الاحتلال الإنجليزى، دون أن يخشـى على ثروته من تهديدات الإنجليز أو القصر.

ولما نشأت الأحزاب فى مصر عام ١٩٠٧ اختار أن ينضم للحزب المتشدد فى الوطنية، وهو الحزب الوطنى الذى أسسه مصطفى كامل، وعند تشكيل اللجنـة الإدارية للحـزب عام ١٩٠٨ كان ويصا واصـف واحدا من أعضاء هذه اللجنة. إلا أن مصطفى كامل لم يلبث أن رحل، واختلف أمر الحزب بعده، فاستقال ويصا من صفوفه، لكنه لم يبتعد عن الحياة العامة.

وفى عام ١٩١٠ حين اشـتد الاحتقـان الطائفى فى مصر كان لويصا موقـف ناضـج نحو هـذه الطائفية، وعندمـا تقرر عقد المؤتمـر القبطى

هاجم انعقاده، ورفض حضوره، كما ذكرنا من قبل حتى لقبه المتشددون بيهوذا الإسخريوطى.

● **مع سعد**

وفى ١٩١٩ ضم الوفد ويصا واصف إلى صفوفه باعتباره مترجما فى البداية، وفى باريس رأى أعضاء الوفد أن يكون الرجل واحدا منهم وليس مجرد مترجم، وبعد انضمامه صار مسئولا عن الدعاية مع واصف غالى.

ولايختلف موقفه عن موقف كل المسيحيين الذين كانوا فى الوفد، فقد اختار سعدا، ورفض ما سمى بجماعة الاعتدال، وبقى إلى جواره حتى عاد من فرنسا عام ١٩٢١.

بعد إلقاء القبض على سعد ورفاقه ونفيهم سنة ١٩٢١ بقى فى مصر ليشارك فى قيادة الكفاح الوطنى ضد المحتل، وكان بيت الأمة هو المقر الدائم لقيادات الوفد، ورأى واصف غالى أن يصدر بيانا للأمة يشحذ همتها فيه بعد نفى الزعيم، وانتحى لكتابته، فرآه ويصا وعرف ما يكتبه، فقرر أن يوقع معه على البيان، وهنا يرصد فخرى عبد النور لحظة إنسانية جميلة بين الرجلين ننقلها كما هى من مذكرات فخرى عبد النور:

«أعرب الأستاذ ويصا عن رغبته فى توقيعه معه والتضامن فيه. فنصحه الأستاذ واصف غالى بالكف عن ذلك لأنه هو إن فعل ذلك فلأنه ثرى ولا أولاد له. أما الأستاذ ويصا فإن حياته تقوم على عمله

فى المحامـــاة، وله أولاد هم فى حاجة إليه. إلا أن الأســتاذ ويصا أصر على توقيع النداء قائلا إنه ليس أقل منه وطنية[1]».

يإلهـــى.. أى الرجلين أروع؟ الرجل الذى يؤثر صديقه على نفســـه، أم الرجـــل الذى يصر على التضحية برغم حاجـــة أولاده إليه وحاجته إلى المال؟

بعد نفى الزعيم وصعود ويصا وصحبه لقيادة الوفد قررت الســـلطات الإنجليزيـــة القبـــض عليـــه هو وزملائه، وأرســـلت قـــوة للقبض عليه، وعلمت القوة أن الرجل فى المحكمة المختلطة يترافع فى إحدى القضايا، فذهبت إلى مبنى المحكمة، واقتحم الضابط المكلف بالمهمة قاعة المحاكمة للقبض عليه وهو يترافع، لولا أن رئيس المحكمة (المستشار هوريه) منع القـــوة من القبض على ويصـــا، وأمرها بالخروج فورا من قاعة الجلســـة إحتراما لقدســـية القضاء، ولقن الضابط درســـا قاســـيا، فخرجت القوة وانتظرته حتى انتهت الجلسة ثم قبضت عليه[2].

ولمـــا لم تجد الســـلطات ما يدين ويصا أو زمـــلاءه أفرجت عنهم فى ٢٧ يناير.

● الحكم بالإعدام

وحكـــم الإنجليز علـــى ويصا واصف بالإعدام كمـــا حكموا على بقية أعضـــاء الطبقة الأولى من الوفـــد، لكنهم أبدلوا الحكم كما ذكرنا من قبل

(١) مذكرات فخرى عبد النور، ص ٣٣٥.
(٢) مذكرات فخرى عبد النور، ص ٣٤٧

إلى السجن سبع سنوات وتغريم كل متهم منهم ٥٠٠ جنيه، ثم أفرجت عن الجميع فى ١٤ مايو ١٩٢٣. لكن المهم هنا أن ويصا واصف ورفاقه كانوا مستعدين للموت فى سبيل الوطن[١].

• فى البرلمان

عاد سعد من منفاه، وخاض الوفد الانتخابات فاكتسحها، ومن الدروس المهمة فى هذه الانتخابات التى أدارها يحيى باشا إبراهيم، رئيس الوزراء ووزير الداخلية، أن يحيى باشا إبراهيم رسب فى الانتخابات، لأنه كان رجلا شريفا ونزيها، لم يستخدم سلطته ليزور النتيجة الخاصة به. ومن الدروس المهمة أيضا أن المصريين لم يضعوا فى حساباتهم ديانة المرشح، بل نظروا لانتمائه السياسى، ولهذا خاض ويصا واصف الانتخابات فى دائرة المطرية، وهى ليست دائرته، فهو صعيدى، لكنه اكتسح خصومه، لأن الشعب المصرى كان يثق أن الوفد ورجاله هم الأقدر على تحقيق آماله القومية. وبعد الفوز علق ويصا واصف على النتيجة فقال: «إننى أمثل فى البرلمان دائرة لا قبطى فيها غير نائبها».

• محطم السلاسل

لم تستمر وزارة سعد طويلا، فقد انتهت بمقتل السردار الإنجليزى، وجاء الملك بعده برجل من أسوأ من تولوا الوزارة فى مصر وهو زيور باشا، وعرض زيور على ويصا أن ينضم لوزارته، ولم يضعف ويصا أمام بريق المنصب، لأنه كان رجل مبادىء، لذلك رفض المنصب. ولم تكن هذه المرة

(١) فى أعقاب الثورة المصرية، ج١، ص ٥٥.

الوحيدة التى رفض فيها الرجل منصب الوزير فقد رفضها بعد ذلك حين عرضها عليه الديكتاتور إسماعيل صدقى.

لكن المهم أن الوفد عاد للحكم فى عام ١٩٣٠، أى بعد وفاة سعد الذى توفى عام ١٩٢٧. واختار النحاس ويصا واصف ليكون رئيسا لمجلس النواب. إلا أن الأمور سارت فى طريق وعر، فلم يلبث الملك فؤاد أن عزل الوزارة النحاسية وجاء بإسماعيل صدقى ليشكل الوزارة الجديدة، وبمجرد أن تولى الوزارة عطل البرلمان، وأحاطه بالحرس، وأغلق أبوابه بالسلاسل، وأعلن التحدى.

لم يكن النحاس ورفاقه من رجال الوفد يخشون السلطات الظالمة أو يهابون الموت فى سبيل المبدأ، لذلك حشد النحاس رجاله واقتحم صفوف الحرس غير مبالٍ بالموت، ووصل الجميع إلى باب البرلمان، وتقدم ويصا باعتباره رئيس البرلمان وصاحب الحق الوحيد فى فتح البرلمان، وأمر الحرس بتحطيم السلاسل، وفتح البرلمان برغم أنف صدقى، ووقف النحاس باعتباره أحد نواب المجلس المنتخبين فألقى كلمة فى غاية الجرأة، وهكذا سجل التاريخ لويصا واصف أنه محطم السلاسل.

• خاتمة المطاف

فى ٢٧ مايو ١٩٣١ غادر المناضل الكبير ويصا واصف دنيانا وصعدت روحه إلى جوار ربها، وشيعه المصريون فى موكب مهيب يليق برجل قضى حياته فى السعى من أجل تحرير الوطن ورفعته. ويروى شهود العيان أن موكب الجنازة كان أوله عند الكنيسة البطرسية فى العباسية

وآخره فى ميدان رمسيس. وكانت الناس تهتف به أن يبلغ سعدا فى مثواه أن الظلم لا يزال باقيا.

● مكرم عبيد

الباب الصحيح للدخول إلى شخصية مكرم عبيد هو قوله:

«نحن مسلمون وطنا ونصارى دينا،

اللهم يا رب المسلمين والنصارى،

اللهم اجعلنا نحن المسلمين لك، وللوطن أنصارا،

اللهم اجعلنا نحن نصارى لك، وللوطن مسلمين».

ففى هذه العبارات الموجزة نرى مكرم المؤمن بالتسامح، والتعايش مع إخوانه وبنى وطنه المسلمين فى وطن واحد، ونرى مكرم البليغ، القادر على التعبير. ومن خلال هذه العبارات سندخل إلى شخصية مكرم عبيد.

● من قنا إلى أوروبا

ولد وليم مكرم عبيد فى قنا عام ١٨٨٩، وهو عام ميلاد طه حسين وعباس محمود العقاد. وكأن هذا العام كان موعدا لمجىء هؤلاء العظماء إلى الدنيا.

كان والده فلاحا من أثرياء الريف، ولم يلبث الوالد أن عمل بالمقاولات، وشارك فى إنشاء خط للسكك الحديدية بين نجع حمادى والأقصر، مما زاد ثروته، ولعل هذا الثراء هو السبب الذى شجع الأب على تعليم

ابنه فى جامعة أكسفورد بانجلترا لدراسة القانون. والقانون فى هذا الوقت هو الباب الملكى للاشتغال بالسياسة، ودخول الوزارة، ورئاسة الوزارة أيضا.

تخرج مكرم فى كلية الحقوق عام ١٩٠٨، ثم شد الرحال من إنجلترا إلى فرنسا فى العام نفسه ليلتحق بجامعة ليون، ليكمل دراساته العليا فى القانون. وأثناء إقامته فى فرنسا درس أيضا علم الآثار المصرية، ودراسة هذا العلم بالتحديد تعطى صاحبها اعتزازا بتاريخه، وبقدرة أجداده على الإبداع، وسبقهم للدنيا كلها فى مجالات لا حصر لها، وفى رأيى أن اهتمامه بهذه الدراسة فى هذه الفترة يدل على رغبته فى التعرف على روح مصر، ويعكس اهتماما مبكرا بشئون الوطن.

وفى رأيى أن أهم ما تعلمه المصريون الذين سافروا إلى أوروبا لم يكن هو العلم الموجود فى الكتب، بل هو ما شاهدوه فى المجتمعات الأوروبية من النواحى السياسية والاجتماعية والاقتصادية، فقد عاد الشيخ رفاعة مثلا ليترجم لنا الدستور الفرنسى، ويكتب عن الليبرالية، والنظام السياسى الفرنسى، وتعليم المرأة، وأهمية الصحف والمجلات فى تكوين الرأى العام. كما عاد على مبارك مؤمنا بأن تكون مصر قطعة من أوروبا، ويشارك صديقه إسماعيل باشا فى تحقيق هذا الحلم. وعاد قاسم أمين ليتحدث عن تحرير المرأة، وعن الحرية الاقتصادية، وهكذا فإن أعظم ما جاءنا من الغرب لم يكن العلم النظرى، بل التأثر بالحياة والتفكير الأوروبيين، والحلم بأن تكون مصر مثل المجتمعات الأوروبية.

ومن حسن حظ مكرم أنه حين سافر إلى أوروبا، وإلى فرنسا بالتحديد، أن الحياة الثقافية كانت مزدهرة، وكانت الاشتراكية تجد رواجا كبيرا، باعتبارها سبيلا لتحرير الناس من الفقر والظلم. وكان من الطبيعى أن يتأثر مكرم بهذا الفكر. وبعد حوالى أربعة أعوام عاد مكرم من فرنسا إلى مصر يحمل شهادة عليا فى القانون، ويحمل رغبة عارمة فى المشاركة للنهوض بوطنه.

• بعد العودة

فى عام ١٩١٣ التحق مكرم بوزارة العدل المصرية، وعمل سكرتيرا للوقائع المصرية. ثم انتقل إلى منصب رفيع، حيث عمل سكرتيرا للمستشار البريطانى لوزارة العدل. ومن أفضل من مكرم يقوم بهذا العمل، وهو الذى يجيد الإنجليزية كواحد من أبنائها، إلى جانب معرفته بالفرنسية، وثقافته الواسعة نتيجة قراءته باللغتين؟

ظل مكرم فى هذه الوظيفة من عام ١٩١٥ – ١٩١٩، لكن المنصب الرفيع لم يأسره، ولذا فقد كتب مذكرة شهيرة للرد على المستشار البريطانى، ثم تقدم باستقالة مفتوحة نشرها فى الصحف. وتوجه للعمل فى مدرسة الحقوق. وهذه الاستقالة هى أول تضحية لمكرم فى سبيل وطنه، وما أكثر تضحياته فى هذا السبيل.

• مع الزعيم

شبت الثورة ومكرم فى مدرسة الحقوق. ونفى الإنجليز سعدا فى مارس ١٩١٩، وبعد الإفراج عنه توجه سعد والوفد إلى فرنسا للمطالبة

بحق مصر فى الحرية. ولم يعد سعد لأرض الوطن إلا فى أبريل ١٩٢١، وفى القطار المتوجه من الإسكندرية إلى القاهرة تقدم ويصا واصف نحو زعيم الأمة ومعه الشاب مكرم عبيد ليعرف الزعيم بهذا الشاب الذى درس فى أوروبا، ويجيد أكثر من لغة أوروبية. ومنذ هذه اللحظة دخل مكرم مرحلة جديدة من مراحل حياته.

يروى لنا التاريخ أن مكرم عبيد بعد وصوله إلى القاهرة فى قطار الزعيم قام بتنظيم احتفال بعودة الزعيم لأرض الوطن. وغضبت وزارة المعارف على مكرم لهذا السبب. وقررت أن تعاقبه. وبالفعل فصلته من وظيفته. ولم يكترث مكرم فمن قبل ترك الوظيفة باختياره، فلتذهب الوظيفة وليبق الانتماء الوطنى.

قيد مكرم نفسه فى نقابة المحامين. وافتتح مكتبا للمحاماة. لكنه لم يكن يهدف للربح، فقد قرر الدفاع عن بنى وطنه الشرفاء الذين يقبض عليهم بسبب الثورة. لكن الوقت لم يطل بمكرم فقد جد جديد، إذ قرر سعد أن يستعين به.

لم يكن سعد يهتم بما إذا كان الرجل مسلما أو مسيحيا، كان يريد رجالا مصريين أكفاء يستطيعون مساعدته فى كفاحه من أجل تحرير الوطن وحسب. لذلك لم يلبث أن أرسل مكرم إلى أوروبا للوقوف فى وجه عدلى يكن رئيس وزراء مصر الذى أراد أن يسلب من سعد تفويض الأمة له للحديث باسمها. والتفاوض من أجل الحصول على استقلالها. فها هو عدلى يكن يرأس وفدا حكوميا ويذهب للتفاوض مع الإنجليز متجاهلا حق سعد.

والمهم أن الأمة التى وكلت سعدا لخصت موقفها من هذا الخلاف فى عبارة موجزة تقول: «الاحتلال على يد سعد ولا الاستقلال على يد عدلى». فالأمة لا تثق إلا فى سعد، ولا تعترف بغيره زعيما يتحدث باسمها.

قضى مكرم فى مهمته ستة أشهر، ونجح فيها نجاحا باهرا. فلديه علاقات ممتازة مع كثير من الإنجليز، ولغته الإنجليزية وثقافته تسمحان له بالكتابة فى كبريات الصحف الإنجليزية، وهو شاب نشط، عاش فى انجلترا طويلا ولديه علم بأساليب الضغط فى المجتمع الإنجليزى، ويعرف كيف يتصل بجماعات الضغط، ويكسبها لصالح قضيته، وبالفعل أقنع الإنجليز أن أى تفاوض مع أى فرد غير زعيم الأمة المفوض لا قيمة له. ويصف الأستاذ فخرى عبد النور فى مذكراته ما قام به مكرم عبيد فى لندن بقوله:

«لم يكد الأستاذ مكرم يستقر بلندن حتى شرع فى نشر دعاية ضخمة، تعريفا للرأى العام البريطانى. فراسل كبريات الصحف الإنجليزية، وألف لجانا من الطلبة المصريين فى مختلف المدن والجامعات، وعقد الاجتماعات العامة التى كان يحضرها الإنجليز والمصريون ليبين لهم حقيقة الحال فى مصر. وندد بما تتخذه الوزارة القائمة من إجراءات تعسفية لخنق إرادة الأمة[1]».

لكل هذه الأسباب نجح مكرم فى الاختبار الأول. وحين عاد من لندن فوجىء بما لم يكن يتوقع. فالناس قد خرجت لاستقباله فى

(١) مذكرات فخرى عبد النور، ص ١٧٦.

الميناء باعتباره بطلا شعبيا، وانتظرته فى الطريق لتحييه، والطلبة قد أعدوا حفلا لتكريمه. والشعراء ألقوا القصائد فى مدحه. لكن المفاجأة الكبرى كانت فى ذهاب سعد باشا زعيم الثورة إلى محطة السكة الحديد بنفسه لاستقباله. وأحس الشاب ابن الثالثة والثلاثين أن مصر لا تصنف الناس على أساس دينهم، بل على أساس دورهم فى خدمة الوطن. والحقيقة أن من أهم ما خرجت به مصر من ثورة ١٩١٩ قاعدة تقول: «الدين لله والوطن للجميع». وقد صاغ الشاعر هذا المعنى بقوله:

الدين للديانِ جلَّ جلالُهُ لو شاء ربُّكَ وحد الأديانَ

ومن الجدير بالذكر أن مكرم أعلن منذ لحظة وصوله «أن اسمه الوطنى أصبح «مكرم عبيد». وأنه أسقط منه وليم لأن الإنجليز تعارفوا على التسمية به[1]».

• فى المنفى

لم تطل مدة إقامة مكرم بعد عودته إلى مصر. فالأحداث تطورت بسرعة. لقد عاد مكرم من لندن فى ديسمبر١٩٢١. وفى ديسمبر تحل ذكرى فرض الحماية على مصر. وفى هذه المناسبة قرر سعد باشا أن يعقد اجتماعا كبيرا يلقى فيه خطبة عن أحوال البلاد. وكان من المقرر أن يشارك مكرم فى هذا الاجتماع ببيان سياسى. وحدد يوم ٢٣ ديسمبر موعدا للاجتماع. ولأن الإنجليز يعلمون شعبية سعد باشا. ويعرفون أن هذا الاجتماع سيضم الألوف المؤلفة من الجماهير المحبة للزعيم.

(١) مذكرات فخرى عبد النور، ص ٣١٥.

الحالة بالحرية، فقد أصدرت قرارا بإلغاء الاجتماع يوم ٢٠ ديسمبر، وأرسل الجنرال كلايتون مستشار وزارة الداخلية إنذارا لسعد يمنعه فيه من إلقاء الخطب، وحضور الاجتماعات، واستقبال الوفود، والكتابة للصحف، وزاد الطين بله بأن أمره بمغادرة القاهرة إلى مسكنه فى الريف تحت المراقبة.

وكما أنذر كلايتون سعدا أرسل إلى مجموعة من رجاله الذين يلتفون حوله، وهم مكرم عبيد، سينوت حنا، مصطفى النحاس، فتح الله بركات، عاطف بركات، صادق حنين، جعفر فخرى، وأمين عز العرب.

لم يكن سعد وصحبه ممن ترهبهم الإنذارات. وفى اللحظة الحاسمة لاتخاذ القرار تقدم مكرم عبيد ليلقى بالكلمة الحاسمة «لاجواب غير الرفض». ورفض أغلب الأعضاء الإنذار، ومنهم مكرم، ولم يقبل الإنذار سوى ثلاثة أعضاء هم:

- أمين عز العرب الذى قبل السفر إلى عزبة والده بالسنطة.
- صادق حنين بك الذى قبل البقاء بمنزله بالزيتون.
- وجعفر فخرى.

وكان عقاب الرافضين هو النفى إلى سيشل. كما أصدر اللنبى أمرا عسكريا يوجب على البنوك والأفراد الامتناع عن صرف أى مبلغ مودع باسم سعد أو باسم الوفد أو أحد أعضائه إلا بإذن كتابى منه[1].

من الواضح أن فترة المنفى قربت بين مكرم وسعد، وبينه وبين النحاس، فقد أصيب مكرم بالملاريا فلازمه النحاس فى المستشفى حتى منّ الله

(١) فى أعقاب الثورة المصرية، ج١، ص ٢٧.

عليه بالشفاء، ويبدو أن مكرم والنحاس كانا على وفاق كبير منذ التقيا، إلى حد أنه يروى أن مكرم والنحاس كانا فى بيت الأمة مع الزعيم، وتأخر الوقت بهما، وحينئذ نهض مكرم للعودة إلى بيته «وكانت الثورة على أشدها، وجند الإنجليز يملأون الشوارع.. ونظر سعد، فإذا مصطفى النحاس ينهض للخروج معه.. فقال سعد:

– سيقتلونكما قطعا.. ابقيا هنا إلى الصباح.

فقال النحاس: أنا ومكرم شئ واحد.. نعيش معا ونموت معا..

وخرجا معا واختفيا فى ظلام الليل[1]».

وقد استمرت هذه العلاقة الوطيدة بين الرجلين حتى انشق مكرم على الوفد ١٩٤٢.

لكن من أهم نتائج هذا النفى أنه أتاح لمكرم أن يحفظ القرآن، وأن يتبحر فى العلوم الشرعية على يدى عاطف بركات الذى كان ناظرا لمدرسة القضاء الشرعى. وهكذا جمع بين الثقافتين العربية والأوروبية.

● الجهاد بعد العودة

ظل مكرم فى المنفى حتى عام ١٩٢٣، وحين عاد كانت الدنيا قد تغيرت، فيحيى باشا إبراهيم رئيس الوزراء سعى لإنجاز الدستور، وأصدر قانون الانتخابات، وأجريت أول انتخابات فى مصر، وفاز الوفد بالأغلبية الكاسحة. وصار سعد زغلول بموجبها رئيسا للوزراء. ولم يترك مكرم مكانه إلى جوار سعد برغم أنه لم يفز بأى منصب.

(١) دراسات فى ثورة ١٩١٩، ص ٢٤٤.

وفى عام ١٩٢٤ بدأ سعد فى التفاوض مع حكومة العمال برئاسة رامزى ماكدونالد، وكان من بين أعضاء وفد المفاوضات مكرم عبيد، فسعد لا يجيد الإنجليزية، ولغته الثانية هى الفرنسية، ومكرم خبير بهذه اللغة، ويمكنه تقديم الكثير، لكن المسألة لا تتوقف عند حدود اللغة، فقد تعرف سعد على مواهب مكرم فى الدعاية، وفى الخطابة، وفى التفاوض، كما عرف علاقاته الواسعة بالإنجليز، ولذا صحب مكرم معه.

وبعد العودة من لندن سارت الأمور فى مسار وعر، فقد وقع حادث اغتيال السردار، وقبض الإنجليز على عدد كبير من الوطنيين الذين حامت حولهم الشبهات، وبينهم مكرم عبيد.

لكن ثبت أن الاتهام كان ظالما فأفرج عن مكرم، كما أفرج عن الآخرين، وعاد مكرم للجهاد إلى جوار سعد، حتى لقب بابن سعد.

● **بعد سعد**

رحل سعد عن دنيانا فى أغسطس عام ١٩٢٧، وظهرت فورا مشكلة الزعامة، فمن سيخلف سعدا؟

وبرز فى الساحة فريقان:

- الأول: يضم النحاس ومكرم.
- والثانى: يضم أحمد ماهر والنقراشى.

كان النحاس وماهر يتنافسان على الرئاسة، وفاز بها النحاس، وكان مكرم والنقراشى يتنافسان على منصب السكرتير العام للحزب،

وفـاز به مكـرم. ومنذ هـذه اللحظة بـدأ الخلاف بين مكـرم والثنائى ماهر/ النقراشـى، لكـن الخلاف كان أشـد بـين مكرم والنقراشـى، وقد اسـتمر الخلاف بين الرجلين حتـى آخر العمر. وكان هذا الخلاف من العوامل التى تسببت فى حدوث الانشقاق الكبير بالوفد، الذى خرج فيه النقراشى ثم ماهر عام ١٠٣٧.

مع أول وزارة شكلها النحاس صعد مكرم لكرسى الوزارة، حيث صار وزيرا للمواصلات، إلا أن عهد الوزارة كان قصيرا، وسـرعان ما صرفها الملك بعد حوالى ثلاثة أشهر (١٦/٣ - ٢٥/ ٦/ ١٩٢٨)، وعين بدلا منها وزارة محمد باشـا محمود، ومحمد محمود لمن لا يعرف هو الرجل الذى اشتهر بـ «صاحب القبضة الحديدية»، فقد كان ديكتاتورا شديد البأس، وكان الملـك يلجأ إليه ليواجه شـعبية الوفد الطاغيـة، ومرة أخرى قرر النحاس أن يرسل مكرم إلى لندن ليفضح ممارسات الوزارة الجديدة.

● المجاهد الكبير

فى أغسـطس ١٩٢٨ بدأ مكرم يمارس عمله القديم باعتباره مسـؤولا عـن الدعاية والإعـلام للوفد، وانضـم إلى مكرم ممثل الوفـد الدائم فى لنـدن (حامد محمود)، وبدأ العمل معـا. ويقول الدكتور مصطفى الفقى فـى كتابـه «الأقباط فى السياسـة المصرية» إن مكرم «نظـم فور وصوله اجتماعـات إعلامية دعائية، وألقى عـددا من الخطب ضد نظام محمد محمود الديكتاتـورى... وواصـل مكرم عبيد نشـاطه فـى لندن بكتابة مقالات فى الصحف، أو عقد لقاءاته مع الشخصيات البريطانية العامة...

كما أصدر عن الجمعية المصرية البريطانية نشـرة سياسـية تحت عنوان «مصر»...وقد حقق عبيد نجاحا كبيرا عن طريق اتصالاته الخاصة بعدد من أعضاء البرلـمان البريطاني من العمال، فكانت له مجموعة ضغط من خمسة أعضاء، برئاسة مستر كورنورثي، قامت بتوجيه النقد لحكومتهم بسبب موقفها السلبي من تعطيل الدستور المصرى وحل البرلمان[1]».

بعـد عودة مكرم من رحلته الناجحـة أطلقت عليه الصحف الوفدية لقب «المجاهد الكبير».

لم تكن مهمة مكرم سهلة كما نحكيها الآن بهدوء، فمنذ البداية كان محمـد محمود وهـو العارف بقدرات مكرم يريد منعه من السـفر، وبعد أن سـافر كان يتابع أخباره مستاءا، ثم سافر إلى لندن فكانت المواجهة الإعلاميـة بين المواطن العـادى مكرم عبيد وبين رئيـس الوزراء محمد محمـود، ثم عاد مكرم إلى مصر ليجد أنصـار رئيس الوزراء فى انتظاره للهجوم عليه، وفـى مقابل تلقيب الصحف الوفدية له بالمجاهد الكبير لقبته الصحف المناصرة لمحمد محمود بـ «المجاهد الفاشل الكبير[2]».

• رجل الوفد القوى

فى عام ١٩٣٠ عاد الوفد من جديد للحكم، وعاد مكرم للوزارة، لكنه هـذه المرة كان وزيرا للمالية. والمعـروف أن العلاقة بين مكرم والنحاس فـى هذه الفترة قد بلغت ذروتها، حتـى إن البعض يرون أن مكرم كان

(١) الأقباط فى السياسة المصرية، ص ٨٠.

(٢) الأقباط فى السياسة المصرية، ص ٨٠ – ٨١.

هـو المحرك الرئيس للنحاس، وقد سـافر النحاس إلى لندن للمفاوضات فصحب معه صديقه الحميم مكرم. لكن عمر الوزارة الوفدية لم يطل هذه المرة أيضا (يناير/ يونيو ١٩٣٠). وجاءت بعدها واحدة من أسوأ الوزارات التى شـهدتها مصـر، وهى وزارة إسماعيل صدقـى (١٩ يونيو ١٩٣٠) وهى الوزارة التى عطلت البرلمان وغيرت الدسـتور. ومرة أخرى سـافر مكرم إلى لندن ليواجه الدكتاتورية الجديدة، إلا أن وزارة صدقى صمدت هذه المرة، واسـتمر صدقى رئيسـا للوزارة حتى عام ١٩٣٣. وحتى بعد رحيله لم يعد الوفد للحكم بل تولت الأمورأحزاب أخرى من الأقليات، ولم يعد الوفد إلا فى مايو ١٩٣٦.

وخـلال بعد الوفـد عن الحكم جـرت مياه كثيرة فـى النهر، كان مكرم طرفا رئيسـا فيها، فعلى سـبيل المثال. وقـع خلاف عنيف بين إسماعيل صدقى وطه حسـين، لأن طه حسـين رفض أن يتولى رئاسـة تحرير الصحيفة الخاصة بحزب الشـعب الذى يرأسـه صدقى، فعاقب صدقـى طه حسـين بنقله من الجامعـة إلى وظيفة أخرى فـى الوزارة، ورفض طه حسـين تنفيذ النقل، واستخدم رئيس الوزراء كل قدراته فى التنكيل بخصمه، حتى إنه أوعز للشركة التى تؤجر له مسكنه أن تطرده من السـكن. ووصل الكاتـب العظيم إلى حافة الإفـلاس، وحينئذ أقنع مكرم – باعتباره سكرتيرا للوفد – زعيمه مصطفى النحاس بأن يكون طه حسـين أحد كتاب مجلة كوكب الشـرق الوفدية، ولم يتردد النحاس، وكان موقفـا جيدا من مكـرم والنحاس معا، يدل على أنهما يرفضان أن يكون طه حسين فريسة سائغة لصدقى وديكتاتوريته.

وقع فى هذه الفترة أيضا حادث مهم، فقد شارك مكرم عبيد وزوجته عايدة فى تزويج رئيس الوفد مصطفى النحاس من امرأة تصغره بأكثر من ثلاثين عاما، هى السيدة زينب الوكيل، وبعد هذه الزيجة بدأت العلاقة تفتر شيئا فشيئا بين الرجلين. حتى أشرفت على الانقطاع عند انشقاق مكرم على الوفد.

لكن برغم بدايات الفتور فقد كان إلى جوار زعيم الوفد حين عقد معاهدة ١٩٣٦ «معاهدة الشرف والاستقلال» ليضيف المزيد من صفحات الكفاح لسجله الوطنى. ولن أسترسل فى الحديث عن مكرم أكثر لأنى لا أريد أن ابتعد كثيرا عن ثورة ١٩١٩، ومن المناسب أن نجعل عام ١٩٣٦ هو نقطة التوقف عند حديثنا عن هذه الثورة، باعتبار أن هذا العام شهد توقيع المعاهدة بين الإنجليز والوفد، ويمكن اعتباره نهاية مرحلة من مراحل الكفاح الوطنى.

لكن قبل أن نضع نقطة النهاية فى حديثنا عن مكرم نريد أن نقف عند نقطة مهمة ساعدته كثيرا فى القيام بدوره، ومكنت له فى قلوب المسلمين والمسيحيين على السواء، وهى نقطة الخطابة. كما أريد أن أعطى الرجل حقه فى الريادة، إذ كان من أكثر أبناء جيله حماسا لفكرة القومية العربية.

• مكرم الخطيب

يكاد يكون هناك إجماع على أن مكرم عبيد هو أعظم خطباء عصره بعد سعد زغلول. ويقال إن الناس كانت تذهب إلى المحاكم حين

يترافع مكرم عبيد لكى يستمتعوا بمرافعاته البليغة، التى تعتبر قطعا من الأدب الرفيع.

والمعروف أنه أثناء وجوده فى أوروبا درس الموسيقى دراسة جيدة، وظل طوال عمره مهتما بالعزف والغناء، وكانت تربطه صداقة وثيقة بالمطرب محمد عبد الوهاب، لحد أن عبد الوهاب يقول إنه لم تكن تمر ليلة دون أن يلتقيا.

وأظن أن دراسة الموسيقى بالذات كانت من أهم أسباب نجاح مكرم فى ميدان الخطابة، فهو يعرف بأى طبقة صوتية يبدأ، وكيف يصعد بنبراته دون نشاز، وكيف يلون صوته، وكيف يختار كلماته ذات الجرس الموسيقى، وكيف يحرص على السجع والجناس والطباق فيسحر السامعين. يقول العقاد عن مكرم فى تقديمه لكتاب المكرميات:

«لا تخلو خطبه أو فصوله من سجع تتلوه توريه، ويمتزج بهما جناس هنا، وطباق هناك، ولا يزال موفقا فى اختيارها كل التوفيق حيثما ذهب طوع السليقة فى هذه الخطب والفصول».

ومن أهم الأشياء التى حققت لكرم الشهرة فى خطابته: حفظه للقرآن، وقدرته على الاستشهاد به فى كل المواقف، ولك أن تتخيل فعل ذلك فى الجمهور المسلم حين يرى مكرم عبيد المسيحى يقتبس آيات القرآن ويتلوها تلاوة صحيحة، بصوت رخيم، وأسلوب مؤثر.

لقد كان مكرم ساحرا فى خطابته، وحفظ لنا التاريخ الكثير من هذه الخطب التى تبين لنا فصاحته، وكانت الخطابة من أهم أسلحته فى جهاده الوطنى العظيم.

• مكرم والقومية العربية

بدأت فكرة القومية العربية فى الظهور فى العصر الحديث فى القرن التاسع عشر. وكان أول من تحدث عنها هو إبراهيم باشا بن محمد على. فقد سئل:

- إلى أى مدى تصل توسعاتك؟

فأجاب: إلى حد ما يتكلم الناس وأتفاهم معهم باللسان العربى.

وفى تقرير للمبعوث الفرنسى لدى محمد على أن إبراهيم ذكر بصراحة ووضوح أنه ينبغى إحلال القومية العربية، وأن يجعل من العرب شعبا ناهضا له كيانه الخاص.

كان هذا أثناء قيام إبراهيم باشا بفتح الشام فى الفترة من ١٨٣١ - ١٨٣٩، لكن الفتوحات المصرية للشام سرعان ما ضُربت فى مقتل بسبب تآمر الدول الأوروبية، وعاد إبراهيم باشا بجيشه إلى مصر ليتوارى حلم الوحدة طويلا حتى عام ١٩٥٨ فى عهد جمال عبد الناصر.

وما بين ١٨٣١ و١٩٥٨ تعرضت فكرة القومية العربية لمد وجزر، تبعا لوضع مصر، وظروف كفاحها للتحرر من الأتراك والإنجليز. فقد ظهر اتجاه قوى فى بداية القرن العشرين ينادى بأن مصر فرعونية الأصل، ويجب العودة للجذور، كما ظهر اتجاه آخر يتبنى فكرة الوحدة الإسلامية تحت مظلة الخلافة العثمانية. ولم يحسم هذا الصراع الفكرى من قريب.

لكن برغم هذا الصراع الفكرى فإن الواقع كان يؤكد أن المصريين لم يبتعدوا أبدا عن أمتهم العربية. كما أن الأمة العربية لم تبتعد عن مصر.

ونجد فى شعر شوقى وحافظ - مثلا- ما يدل على التفاعل مع كل الأحداث الكبرى فى الوطن العربى، كما نجد أن ما يقع فى مصر من أحداث يؤثر فى الوطن العربى كله. وحسبنا أن نتذكر أصداء كتاب قاسم أمين عن تحرير المرأة وما أحدثه فى الوطن العربى من معارك لنعرف كيف كانت العلاقة بين مصر والدول العربية فى هذه الفترة. فقد ألف الأدباء والمفكرون ورجال الدين العرب الكتب للدفاع عن أفكار قاسم أمين، أو الهجوم عليها، تماما كما حدث فى مصر، ووصل الحال إلى حد أن الشاعر العراقى جميل صدقى الزهاوى الذى كان من أشد المتحمسين لأفكار قاسم أمين سجن بسبب هذه الآراء.

نلاحظ أيضا أن عددا غير قليل من المثقفين والكتاب والفنانين الشوام قد جاءوا إلى مصر وساهموا فى نهضتها، أو تتلمذ على يد كتابها ومفكريها، مما جعل الصلة موصولة بين مصر ووطنها العربى.

لكن الفكرة خفتت بعض الوقت حين انشغلت مصر فى ثورتها الكبرى ١٩١٩، إلا أن التاريخ يسجل لمكرم عبيد أنه كان من المؤمنين بفكرة القومية العربية، وممن نادوا بها بعد ثورة ١٩١٩، فقد قام مكرم برحلة إلى الشام عام ١٩٣١، وألقى عدة محاضرات «قرر فيها أنه يعارض الاتجاه القبطى تجاه مسألة القومية العربية وأضاف أن الأقباط لهم جذور مصرية قديمة، ولكن ذلك لا يتعارض مع عروبتهم».

ويضيف الدكتور مصطفى الفقى فى كتابه «الأقباط فى السياسة المصرية/ مكرم عبيد ودوره فى الحركة الوطنية» نقلا عن أنيس صايغ فى كتابه «الفكرة العربية فى مصر» أن مكرم نشر مقالا فى عام ١٩٣٩

ناقش فيه مسألة دولة عربية واحدة وطور أفكاره العربية بشكل ملحوظ. ومما جاء فى هذا المقال: «إن التاريخ العربى سلسلة متصلة بسبب وحدة اللغة، والثقافة العربية. وأن على العرب أن يسلكوا الطريق الذى سلكه الأوروبيون بأن يقيموا تنظيما يلتقون من خلاله فى ميثاق قومى واحد لبذل الجهود من خلال النضال العربى المشترك من أجل الحرية والاستقلال» كما يذكر الفقى أن مكرم استخدم تعبير «الجامعة العربية» قبل ظهورها إلى الوجود بخمسة أعوام[1].

إن هذا الموقف من القومية العربية يدل دلالة واضحة على أن مكرم عبيد لم يكن قصير النظر، ولم يحبس نفسه داخل المخاوف الضيقة لبعض المسيحيين المصريين الذين كانوا يعتبرون أن القومية العربية مضادة للقومية المصرية.

وبعد، فهذا هو مكرم عبيد، ابن سعد، والمجاهد الكبير، وأحد قادة الثورة الكبار، وسكرتير حزب الوفد (حزب الأغلبية)، والخطيب، والمفكر القومى، لا يمكن لأحد من دارسى تاريخ مصر الحديث أن يتجاهل دوره فى تاريخ الوطن.

● دور رجال الدين المسيحى فى ثورة ١٩١٩

(١)

حتى الآن لم يستوف الباحثون الحديث عن دور رجال الدين الإسلامى أو المسيحى فى ثورة ١٩١٩، ولازلنا نتحدث عن دور رجال

(١) الأقباط فى السياسة المصرية. ص ٨٥ - ٨٦.

الدين باعتباره شعورا وطنيا جارفا حرك البعض للمشاركة فى الأحداث، لكنى أعتقد أن هذا الدور كان جزءا من تنظيمات الثورة، لم يكشف الستار عنه بعد. وقد كتب أحمد أمين فى كتابه «حياتى» ما يعزز رأيى، فهو يقول: ولما اشتعلت نيران الثورة كنت من المتصلين بعبد الرحمن بك فهمى سكرتير الوفد، وكان يضم إليه جماعة من الشبان يوزع عليهم الأعمال فاختارنى للإشراف على عملين: الأول إلقاء الخطب السياسية فى المساجد عقب صلاة الجمعة، فكنت أجتمع مع بعض الزملاء وأنظم معهم إلقاء هذه الخطب وأوزعهم على المساجد وأعين معهم موضوع مايقولون. والأمر الثانى كتابة المنشورات[1]».

ويقول فى موضع آخر: «على أى حال انغمست فى السياسة واشتركت فى المظاهرات وخاصة فى المظاهرات التى ترمى للتقريب بين الأقباط والمسلمين، فكنت أتلمس المظاهرة، فأركب عربة وأنا بعمامتى أصطحب فيها قسيسا بملابسه الكهنوتية ونحمل علما فيه الصليب والهلال ونحو ذلك من الأعمال[2]».

هذه المقتطفات تشير بوضوح إلى أننا أمام تنظيم لرجال الدين الإسلامى يقوم على أمره أحمد أمين، ويتبع عبد الرحمن فهمى سكرتير الوفد، وأهم شخصية تنظيمية فيه. كما يشير إلى أن هذا التنظيم كان له أعضاء يجتمعون ويضعون الخطط التى تتضمن أماكن النشاط وتوقيته، والموضوعات التى

(١) أحمد أمين: حياتى، القاهرة، ١٩٧٨، ص ٢٠٠ – ٢٠١.
(٢) حياتى، ص ٢٠٢ – ٢٠٣.

سيتم تناولها. كما أن الهدف هنا واضح تماما حيث يقول كاتبنا أنه يشترك فى الأنشطة التى ترمى للتقريب بين الأقباط والمسلمين.

ومادام هناك تنظيم لرجال الدين الإسلامى فلا أظن أن رجال الدين المسيحى لم يكن لهم تنظيم مواز، صحيح أننا لا نعرف شيئا عن هذا التنظيم لكن عدم المعرفة ليس معناه أنه كان غير موجود. بل معناه أننا لم نعرفه بعد.

وقد رأينا أنه حين قبل يوسف وهبة باشا الوزارة وقع عدد من آباء الكنيسة على بيان يستنكرون فيه موقفه. وهم:

القمص باسيليوس إبراهيم وكيل البطريركية.

القمص بطرس عوض الله رئيس الكنيسة البطريركية.

القمص سيداروس غالى نائب رئيس المجلس العام وعضو المجلس الروحى.

القمص سلامة منصور رئيس المجلس الأعلى الملى الفرعى.

القمص سرجيوس.

القمص عبد المسيح ميخائيل رئيس كنيسة الفجالة.

كما رأينا كيف نظم القمص باسيليوس اجتماعا كبيرا بالكنيسة المرقسية وتولى رئاسته للاحتجاج على قبول يوسف وهبة باشا هذا الأمر، فهل كان هذا مجرد رد فعل لمجموعة غير منظمة من رجال الكنيسة؟

(٢)

سواء أكان هناك تنظيم لمؤازرة الثورة بين رجال الدين المسيحى

أم لا، فلابد أن نعترف أنه كان هناك تيار وطنى قوى داخل الكنيسة الأرثوذوكسية بالتحديد. يبدأ من البابا كيرلس الخامس نفسه. وهو رجل وطنى أجمع كل الذين كتبوا عنه من مسلمين ومسيحيين على وطنيته واعتزازه بدينه ووطنه بصورة تثير الإعجاب.

هذا الرجل لم يقتصر دوره على ثورة ١٩١٩ فقد كان له دور أيضا فى ثورة عرابى، فحين انحاز الخديو توفيق للإنجليز انعقد اجتماع وطنى فى ٢٩ يوليو ١٨٨٢ تصدره الشيخ محمد عبده، وندد خلاله البطريرك كيرلس الخامس بمواقف توفيق، وانتهى قرار الأمة بعدم تنفيذ أوامر الخديو لخيانته وخروجه عن الشرع والقانون[1].

واستمر الرجل فى منصبه محاطا بالوقار، ويروى التاريخ عن تعامله المترفع مع الإنجليز، ما يذكرنا بأفعال الصوفية المسلمين الذين استغنوا عن الدنيا، فمما يذكره عنه الدكتور حسين مؤنس فى كتابه «دراسات فى ثورة ١٩١٩» أن المعتمد البريطانى زاره يوما فوجده جالسا فى مصلاه خاشعا بين يدى ربه، فى غرفة هى الغاية فى الزهد والتقشف، وكأن المعتمد البريطانى ظن أن ذلك راجع إلى فقر يعانيه، غير عالم أنه فى حضرة رجل من أهل الحقيقة كما يقول الصوفية. وعرض عليه أن يطلب باسم الأقباط حماية الملكة فيكتوريا، واستمع الرجل الوقور إلى هذا السيد الضخم الذى ملأت أحلام الإمبراطورية والشر رأسه، ثم نظر إليه وقال:

(١) هذا الرجل من مصر، ص ٤٢٥.

– هذه الملكة فيكتوريا إنسانة.. بشر أقصد؟

– نعم، ولكنها...

– أقصد أنها ستموت يوما ما؟

– ماذا تعنى؟

– أعنى: أرجوك أن تقول لجلالة الملكة إن أقباط مصر ليسوا فى حاجة إلى حماية بشر هالك، لأنهم فى حماية الحى الذى لا يموت[1]».

ومما يذكره عنه لعى المطيعى فى كتابه «هذا الرجل من مصر» أن اللورد كتشنر ذهب لزيارته على غير موعد، ففوجىء به الحاجب، وأسرع للبطريرك يلهث قائلا:

– اللورد. اللورد يا أبانا.

– ومن يكون اللورد يا هذا؟ اذهب يا ولد وقل له إن أبانا لا يقابل أحدا بغير موعد[2].

هذا الرجل العظيم حين شبت الثورة كان له دوره أيضا، فبعد نشوب الثورة ظهرت حالة من الفوضى هددت أمن البلاد والعباد، ورأى العقلاء أن يوجهوا بيانا للأمة يطلبون منها التهدئة ويدعون لعدم الاعتداء على الأملاك وعدم تخريب المواصلات، ووقع البيان شيخ الأزهر ومفتى الديار المصرية وبطريرك الأقباط وشيخ مشايخ الطرق الصوفية ونقيب الأشراف ورئيس الوزراء[3].

(١) دراسات فى ثورة ١٩١٩، ص ٢١٢.

(٢) هذا الرجل من مصر، ص ٤٣١.

(٣) مذكرات فخرى عبد النور، ص ١١٢.

وحين عاد سعد زغلول من باريس عام ١٩٢١ كان فى استقباله القمص يوحنا إلياس مندوبا عن البطريرك كيرلس الخامس. وحين وصل سعد إلى القاهرة ذهب لزيارته وعانق البطريرك سعدا ودعا له وقال له:

– أنت تعبت كثيرا.

فقال سعد باشا: سينسى هذا التعب بنجاح قضيتنا، وأطلب منك الدعاء.

فرد البطريرك قائلا: الله يساعدك ويقويك.

فشكر له سعد باشا بقوله: إن شاء الله ببركتك.

فقال البطريرك: ببركة الله تنجح وتفوز[١].

وبعد أن استقال سعد زغلول من الوزارة عين الملك فؤاد أحمد زيور باشا رئيس للوزراء وطلب من البطرك أن يبارك وزارة زيور كما بارك وزارة سعد فقال الرجل الوطنى الشجاع: «إن البركة لا تمنح باليمين لتسلب باليسار[٢]».

وفى ظنى أنه لولا تشجيع البابا كيرلس الخامس ما رأينا آباء الكنيسة يقومون بهذا الدور الرائع الذى قاموا به، ولا فتحت الكنيسة أبوابها لاستقبال الاجتماعات الوطنية دون تردد.

(٣)

ومن الفرسان الكبار فى ساحة الوطنية القمص سرجيوس.

---

(١) مذكرات فخرى عبد النور، ص ١١٠ –١١٢.

(٢) جمال بدوى: من نافذة التاريخ، القاهرة، ١٩٩٥.

وسرجيوس صعيدى مثل عظما ءالوطنية المسيحيين الكبار: مكرم عبيد، وسينوت حنا، وفخرى عبد النور، وغيرهم. ولد عام ١٨٨٢ بجرجا، وتخرج فى المدرسة الإكليريكية عام ١٩٠٣، وبدأ حياته الكنسية كاهنا على ملوى، ومنها تنقل إلى الفيوم والزقازيق حتى حصل على رتبة قمص، ثم عمل وكيلا لمطرانية أسيوط حتى عام ١٩١٢ حيث أرسله البابا وكيلا لمطرانية الخرطوم[1].

● الأسد لن يعدم فريسة

فى الخرطوم أصدر القمص سرجيوس مجلة المنارة المرقسية، وحدد هدفها بأنه «دعوة الأقباط والمسلمين إلى التضامن والتآخى وتقويم الاعوجاج الذى تأصل فى الأقباط ككنيسة. والضرب على العادات التى أضلت الشعب وأفسدت ما ورثناه من الآباء القديسين».

وأثار القمص بمجلته وبآرائه الجريئة السلطات البريطانية الحاكمة فقررت أن تتخلص من وجوده فى السودان، ولم يتأثر الرجل بقرار المحتل، وقال بشجاعة نادرة للمدير الإنجليزى:

«إننى سواء كنت فى السودان أو فى مصر لن أكف عن النضال وإثارة الشعب ضدكم، إلى أن تتحرر بلادى من وجودكم».

إن هذه الجملة تذكرنا بقول جمال الدين الأفغانى حين نفاه الإنجليز حيث قال لهم:

(حيثما ذهب الأسد فلن يعدم فريسته).

المهم أن القمص سرجيوس عاد إلى مصر ليبدأ صفحة جديدة.

(١) مادلين نادر: موسوعة تاريخ أقباط مصر (طبعة إلكترونية) مادة القمص سرجيوس.

• على منبر الأزهر

حين شبت الثورة وجد القمص الثائر أن الوعظ فى كنيسته لم يعد كافيا فى ظل حاجة الشعب إلى الشحن المعنوى لمواجهة قسوة العدو المحتل، وفظائعه ضد المواطنين الذين أعلنوا التمرد عليه، فخرج إلى ساحة الجهاد، وكان الأزهر هو مركز تجمع الثوار فلم يتردد، وذهب إلى الأزهر مثل كل الوطنيين. وصعد إلى منبر الجامع العتيق خطيبا، وكان قد أوتى فصاحة وبلاغة أهلته لهز مشاعر السامعين، إلى حد أن الكثيرين شبهوه بعبد الله النديم خطيب الثورة العرابية. وتحدث القمص الجليل لغة جديدة، فقد ابتدأ خطابه قائلا «بسم الله» وقال من بين ما قال: إن الدين لله، وإن عبادة الله هى وعبادة الوطن سواء، وإنه فى سبيل مصر ينسى أنه قبطى، لأن مصر لا تعرف قبطيا ولا مسلما، وإنما هى تعرف أن الكل أبناؤها، وتطلب منهم جميعا أن يقفوا دونها صفا واحدا، ليحموا من العدو الإنجليزى المحتل أرضها[1].

وظل الرجل على هذا المنوال ثلاثة أشهر يواصل الذهاب إلى الأزهر، ويلتقى بالثوار، ويشارك فى التفكير معهم، ويلقى الخطب النارية ضد الاحتلال. ومما قاله على منبر الأزهر الشريف:

«أنا مصرى أولا، ومصرى ثانيا، ومصرى ثالثا، وإن الوطن لا يعرف مسلما ولا قبطيا بل مجاهدا دون تمييز بين عمامة بيضاء وعمامة سوداء».

---

(١) دراسات فى ثورة ١٩١٩.

ولم يقتصر دور القمص على التفاعل مع أشقائه المسلمين داخل الأزهر بل امتد خارجه. فهاهو يذهب إلى مسجد ابن طولون، وهو مسجد فى منطقة مزدحمة بالسكان، ومن مراكز الإشعاع الدينى لدى المسلمين، ومن على منبر جامع ابن طولون انطلق صوته منددا بالاحتلال، مناديا بالحرية لوطنه.

• فى مواجهة الموت

ولم يكتف القمص سرجيوس بالجوامع ولا بالكنائس بل خرج إلى التجمعات فى أكبر الأماكن وأكثرها اتساعا، ووقف خطيبا لا تحميه من طلقات الإنجليز سوى شجاعته. ولاحظ الرجل أن الإنجليز يتعاملون مع الثوار والمتظاهرين بالقوة المفرطة، دون خوف ممن يحاسبهم. ولأن القمص سرجيوس رجل دين مسيحى، درس الأناجيل وعرف ما فيها فقد رأى أن ما يفعله الإنجليز مع المصريين لا يتفق مع تعاليم المسيح، التى تقول: «من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضا. ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضا. ومن سخرك ميلا واحدا فاذهب معه اثنين[1]».

ولذا فجر قنبلة مدوية فى إحدى خطبه إذ قال «إن الإنجليز ليسوا مسيحيين ولا يعرفون الله، وإنما هم كفار، لأن الذى يغتصب بلاد الناس ويقتل الشباب الهاتف لوطنه كافر، وظل يردد كافر حتى أسرع نحوه جندى إنجليزى يريد قتله، فصاح أحد الواقفين محذرا:

- حاسب يا أبونا حيموتك.

(١) إنجيل متى - الإصحاح الخامس.

ولم يهتز القمص، ولم يتوقف عن إلقاء خطبته. بل قال فى شجاعة تليق به: ومتى كنا نحن المصريين نخاف من الموت؟ دعوه يريق دمائى لتروى أرض وطنى التى ارتوت بدماء آلاف الشهداء. دعوه يقتلنى ليشهد العالم كيف يعتدى الإنجليز على رجال الدين».

وأمام هذه الشجاعة تراجع الجندى الإنجليزى، لكن صوت القمص لم يتوقف[1].

• المنفى

ضاق المستعمر بالقمص، وقرر أن يبعده عن القاهرة، وأن ينفيه فى وطنه. واختار رفح لتكون المنفى. وما أدراك ما رفح فى تلك الأيام البعيدة، وكما نفاه نفى معه الشيخ على الغاياتى. وفى رفح جلس الشيخ والقسيس يسترجعان ذكريات النضال، ويتباحثان فى شؤون الوطن، وتبينا خلال المناقشة أن الإنجليز لا يفرقون بين مسلم ومسيحى مادام مصريا، وأن أبناء الوطن يجب أن يقفوا معا بصرف النظر عن الديانة للحصول على الحرية. والغريب أن المنفى لم يكسر شوكة القمص أو يحطم معنوياته، فراح فى منفاه يكتب الرسائل النارية للمعتمد البريطانى مطالبا فيها بحرية وطنه واستقلاله، واستمر النفى قرابة ثلاثة أشهر، وعاد القمص ليواصل جهاده دون كلل.

وقد مد الله فى عمر القمص سرجيوس حتى شهد جلاء الإنجليز فى الخمسينيات. ورحل عن دنيانا فى سبتمبر عام ١٩٦٤

(١) دراسات فى تاريخ ثورة ١٩١٩، ص ٢٢٧.

عن اثنين وثمانين عاما. لكن ذكراه العطرة لا تزال فى الأذهان ممزوجة بكل الامتنان والتقدير لدوره وشجاعته.

• مسيحيات فى ثورة ١٩١٩

لابد أن نعترف قبل أن نتحدث عن دور النساء المسيحيات فى ثورة ١٩١٩ أنه يصعب الفصل بين دور المسيحيات وأخواتهن المسلمات. فقد عمل الجميع معا تحت الراية المصرية. وهذا من أروع دروس هذه الثورة.

بدأ دور النساء منذ اللحظة الأولى للثورة، بل يمكن القول إن الحركة النسائية المصرية والحركة الوطنية قد ولدتا معا.

وجدير بالذكر هنا أن النساء اللاتى قمن بهذا الدور كن مسلمات ومسيحيات. ومن الصعب الفصل بين دور هؤلاء وأولئك.

• مظاهرة النساء

هناك اختلاف بين الكتاب على تاريخ هذه المظاهرة. فهدى شعراوى التى كانت على رأس النساء فى هذا اليوم. وصاحبة المذكرات القيمة التى تؤرخ لأحداث الثورة. تقول إن هذه المظاهرة حدثت يوم ٢٠ مارس ١٩١٩. لكن الدكتور حسين مؤنس يقول فى كتابه «دراسات فى ثورة ١٩١٩» إن هذه المظاهرة كانت يوم ١٦ مارس. وينضم إليه الدكتور يونان لبيب رزق فى كتابه «المرأة المصرية بين التطور والتحرر». والدكتورة إجلال خليفة فى كتابها «الحركة النسائية الحديثة»

وسواء أكان تاريخ هذه المظاهرة هو ١٦ أو ٢٠ فالمهم أنها تمت بعد نفى سعد باشا للمرة الأولى[١].

وضمت هذه المظاهرات خمسمائة امرأة مصرية، مسلمات ومسيحيات جنبا إلى جنب[٢].

سارت المظاهرة متجهة إلى بيت الأمة، وما إن اقترب النساء من الشارع حتى حاصرهم الجنود الإنجليز، ووجدوا الشوارع مسدودة بمدافع الماكينة، فوقفت المظاهرة مضطرة، تحيط بها صفوف الطلبة، وأرادت هدى شعراوى أن تخترق هذا الحصار متجهة إلى بيت الأمة فصوب جندى إنجليزى بندقيته إليها، لكنها لم تتراجع، فأمسكت بها من الخلف حرم الدكتور حبيب خياط لتمنعها من التقدم، فقالت لها هدى: دعينى أتقدم ليكون لمصر اليوم مس كافيل.

وتراجع الجندى حين سمع اسم المناضلة الإنجليزية التى ضحت بروحها من أجل وطنها، ومرة أخرى حاولت هدى شعراوى اختراق صفوف الجنود، لكن صوت شقيقتها المسيحية زوجة الدكتور حبيب خياط قالت لها وهى تشير للطلبة المحيطين بالمظاهرة:

– ما هذا الجنون؟ أتريدين إراقة دماء هؤلاء الأولاد إذا رأوا قطرة من دمك تسيل؟

---

(١) مذكرات هدى شعراوى، ص ١٨٥ ١٨٨، ودراسات فى ثورة ١٩١٩، ص ٢٣٣، ود. يونان لبيب رزق: المرأة بين التطور والتحرر، القاهرة، بدون تاريخ، ص ١٠٤، ود. إجلال خليفة: الحركة النسائية الحديثة، القاهرة، ٢٠٠٨، ص ١٧٩.

(٢) المرأة بين التطور والتحرر، ص ١٤٠.

«وحينئذ ثابت هدى شعراوى لرشدها. وقررت أن تحافظ على الشباب الذى سيفديها بدمه لو مسها مكروه[1].

وقد سجل شاعر النيل هذه المناسبة فى إحدى قصائده جاء فيها:

خرج الغوانى يحتجج ... ن ورحت أرقب جمعهنه
فإذا بهن تخذن من ... سود الثياب شعارهنه
فطلعن مثل كواكب ... يسطعن فى وسط الدُّجُنّه
وأخذن يجتزن الطري ... ق ودار سعد قصدهنه

...

وإذا بجيش مقبل ... والخيل مطلقة الأعنه
وإذا الجنود سيوفها ... قد صوبت لنحورهنه

.....

فليهنأ الجيش الفخو ... ر بنصره وبكسرهنه

ولم تكتفِ النساء بالتظاهر، بل رفعن عريضة للمعتمد البريطانى يحتججن فيها على نفى سعد باشا والزعماء المصريين، جاء فيها:

«جناب المعتمد

يرفع هذا لجنابكم السيدات المصريات أمهات وأخوات وزوجات من ذهبوا ضحية المطامع البريطانية. ويحتججن على الأعمال الوحشية التى قوبلت بها الأمة المصرية الهادئة. لا لذنب ارتكبته سوى المطالبة بحرية البلاد واستقلالها تطبيقا للمبادىء التى فاه بها «ولسن» وقبلتها جميع الدول، محاربة أو محايدة....

(١) مذكرات هدى شعراوى، ص ١٨٨ - ١٩٠.

وعلى هذا الاحتجاج وقعت النساء المصريات، مسيحيات ومسلمات، وهذه أسماء النساء المسيحيات اللاتى وقعن مع أخواتهن المسلمات:

حرم كل من: حنا مسيحة، عزيز مشرقى، نجيب اسكندر، إسكندر مسيحة، روفائيل بغدادى، إدوارد راتب، صليب منقريوس، ميخائيل لبيب. بالإضافة إلى الآنستين: جولييت صليب، ومارى ميرهم.

هكذا تلاحمت بنات مصر وسيداتها فى نسيج وطنى واحد يدافع عن حرية الوطن[1].

• لجنة الوفد للسيدات

اجتمعت مجموعة من نساء مصر فى ٨ يناير ١٩٢٠ بالكنيسة المرقسية بالقاهرة (والمكان هنا ذو دلالة) لاختيار مجموعة من النساء يتولين قيادة الحركة السياسية النسائية فى مصر، لتكون موازية للحركة التى يقوم بها الرجال بقيادة سعد زغلول. وكانت السيدة إستر ويصا هى الشخصية القيادية التى تدير الأمور، وانتهى الاجتماع باختيار هدى شعراوى رئيسا للجنة، برغم أن هدى لم تكن موجودة، وأن الاجتماع تم فى الكنيسة، وأن إستر ويصا كانت هى التى تدير الاجتماع، فهل رأى أحد مثل هذا السلوك النبيل الذى لا يهتم بغير الوطنية معيارا فى الاختيار.

وكما اختار الحاضرات هدى رئيسا اخترن إستر ويصا وكيلا. ولا شك أن شخصية إستر تستحق منا وقفة قبل أن نستمر فى الحديث عن لجنة الوفد للسيدات.

(١) الحركة النسائية الحديثة، ص ١٨١ - ١٨٢.

● إستر ويصا

كانت إستر ابنة لرجل صعيدى معروف بتشدده هو أخنوخ فانوس، لكنهـا لم تكن أبدا متشـددة مثله. بـل آمنت بأن الديـن لله والوطن للجميـع. وأنها باعتبارها مصرية يجب أن تبـذل الجهود الممكنة من أجل تحرير الوطن.

ولدت إسـتر عام ١٨٩٥ فى محافظة أسيوط، وتخرجت فى مدرسة البنات الأمريكية عام ١٩١٠. وتزوجت عام ١٩١٣ من فهمى بك ويصا الذى كان وزيرا إبان الحرب العالمية الثانية[١]. ومن هذا الرجل أخذت اسـم ويصا. كانت إستر مهتمة بالتقريب بين الأديان ولذا راحت تدرس التوراة والإنجيل والقرآن بحثا عن نقاط الالتقاء. وعاشـت حياتها كلها مؤمنة بأن الدين لله والوطن للجميع[٢].

انضمت إستر للوفد هى وزوجها ١٩١٩. ولعبت دورا قياديا فى لجنة الوفد المركزية للنساء. لكنها لم تكن المسيحية الوحيدة. فقد كان إلى جوارها نسـاء عديدات مثل روجينه خيـاط، التى تولت أمانة صندوق اللجنة، وبتسى تقلا وغيرهما ممن سنقابلهن على هذه الصفحات.

● إضراب الموظفين

مـن أشـكال المقاومة التـى مارسـها المصريون خلال ثـورة ١٩١٩ إضـراب الموظفين عن العمل، وقد قررت النسـاء أن يكون لهن دور فى

(١) د. محمد رجائى الطحلاوى، ود. يحى عبد الحميد: من أعلام أسيوط، أسيوط، ص ٩٣.

(٢) من أعلام أسيوط، ص ٩٣.

إنجاح الإضراب.وألقين بأنفسهن فى آتون المعركة. تقول هدى شعراوى فى مذكراتها:

«قمنا نحن السيدات نؤيد هذا الإضراب، ونشجع الموظفين على عدم العودة إلى أعمالهم حتى تصل البلاد إلى نتيجة. وكتبت لجنة الوفد للسيدات إلى رشدى باشا (رئيس الوزراء) خطابا تطلب منه الاستقالة إذا كان عاجزا عن تسيير دفة الأمور. وقد علمت أنه كان عازما على تقديم استقالته. فلما وصله الخطاب قال «النساء أيضا يطلبن استقالتى وهاأنذا سأقدمها. فلتطمئن نفوسهن» وقدم استقالته فى نفس الليلة..... وبعد استقالته، خشينا أن يتغير الموقف، فأوعزنا إلى كثير من السيدات بالوقوف على أبواب الدواوين لمنع الموظفين المتخاذلين من الدخول إلى مكاتبهم... وكانت السيدات اللاتى تولين الوقوف أمام الدواوين لمنع الموظفين من الدخول ينتزعن أساورهن وحليهن، ويقدمنها لهم قائلات: «إذا كان أحدكم فى احتياج لمرتبه فليأخذ هذه الحلى، ولا تسودوا وجوهنا بالرجوع إلى أعمالكم بعد صدور الإنذار البريطانى[1]».

• فى مواجهة ملنر

ومن حسن الحظ أن سجلت هدى شعراوى رئيسة اللجنة المركزية لنساء الوفد أنشطة هذه اللجنة فى مذكراتها، ومن هذه الأنشطة كتابة خطاب مفتوح لأعضاء لجنة ملنر فى ١٦ يناير ١٩٢٠، وربما يقول البعض: «وأى بطولة فى كتابة خطاب لسياسى إنجليزى جاء إلى مصر

(١) مذكرات هدى شعراوى، ص ١٨٠ – ١٨١.

فى مهمة محددة؟» والحقيقة أن الأمر ليس بهذه البساطة، لأن الشعور القومى كان متأججا، ولطالما اعتقل الإنجليز رجالا لأنهم كتبوا أو خطبوا ضد الاحتلال، أو اتخذوا موقفا مضادا ضد لجنة ملنر، لأن هذه اللجنة باختصار كانت تسعى لتأكيد الحماية التى فرضها الإنجليز على مصر منذ بداية الحرب العالمية الأولى، والتى رفضها المصريون، وتمسكوا بضرورة الاستقلال، وثاروا من أجله، لكل هذا لم تكن المسألة مجرد خطاب، بل كانت دليلا على أن نصف المجتمع المصرى يرفض الحماية ويتمسك بالاستقلال. ومما جاء فى هذا الخطاب:

«أولا:... الأمة المصرية لا تطلب إلا الاستقلال التام. ولا تقبل فى تفسير هذا المطلب إلا الصراحة والحق. وإذا كانت هناك مناقشة فمع الوفد وعلى مبدأ الاستقلال التام.

ثانيا: نحتج بكل قوانا على المعاملة الخالية من الذوق والكياسة التى تعامل بها السيدات فى مظاهراتهن الوطنية.

ثالثا: نحتج بكل قوانا على المعاملة الاستبدادية الأخيرة كنفى رجال مصر العاملين إلى قراهم، ونفى قرياقص ميخائيل أفندى ومعاملته المعاملة السيئة التى لا تتفق مع مبادىء الحرية والعدالة. ونطلب وضع حد لهذه الطرق الاستبدادية التى لا تتفق مع مدنية أمة حرة.

رابعا: نطلب ونطالب باستقلال بلادنا التام، ولن نرضى غيره بديلا. فلتحيا مصر حرة، وليحيا الاستقلال التام[1].

(١) مذكرات هدى شعراوى، ص ٢١٠.

ووقع على هذه المذكرة عشرات النساء من بينهن هؤلاء السيدات والآنسات المسيحيات: حرم حنا مسيحة، حرم عزيز مشرقى، حرم نجيب اسكندر مسيحة، الآنسة جولييت صليب، مدام روفائيل بغدادى، حرم ويصا واصف، حرم صليب منقريوس، حرم ميخائيل لبيب، الآنسة مارى ميرهم[1].

● المظاهرة الثانية

ولم يقف دور النساء عند هذا الحد فقد «اجتمع نخبة من السيدات فى ميدان الحلمية الجديدة، وركبن فى نحو عشرين عربة طفن بها فى أنحاء القاهرة، هاتفة لمصر والحرية والاستقلال والوفد المصرى ورئيسه وبسقوط لجنة ملنر، وفى يوم ١٣ من الشهر التالى للاحتجاج على لجنة ملنر، ولنفس الغرض اجتمع عدد عظيم جدا من السيدات المصريات بالكاتدرائية المرقسية لتأييد مقاطعة هذه اللجنة الاستعمارية والاحتجاج على قدومها لناوأة الأمة فى مطلبها الحق المشروع والإصرار على التمسك باستقلال مصر[2]».

إننا إذن أمام مظاهرة ثانية للنساء. لكنها هذه المرة مظاهرة راكبة.

● النساء يعارضن الأحكام العرفية

عاشت مصر فى ظل الاحتلال تحت نير الأحكام العرفية طويلا لتأمين مصالح الإنجليز وقت الحرب العالمية الأولى، وبعد انتهاء الحرب

(١) دراسات فى ثورة ١٩١٩، ص ٢٣٣ – ٢٣٤.

(٢) المرأة بين التطور والتحرر، ص ١٥٤.

لم ترفع انجلترا هذه الأحكام لتتمكن من مواجهة اعتراضات الشعب على استمرار الاحتلال، ولم تقف نساء مصر مكتوفات الأيدى أمام هذه الأحكام الجائرة. وكتبن احتجاجا على استمرار هذه الأحكام فى ١٣ فبراير ١٩٢٠، وأرسلن احتجاجهن إلى رئيس الوزراء، ونشرنه فى الصحف. ومما جاء فى هذا الاحتجاج:

«تحتج لجنة الوفد المصرى للسيدات باسم مصر على بقاء الأحكام العرفية واستمرار اعتقال أبناء مصر البررة الذين لا ذنب لهم إلا المطالبة باستقلال بلادهم، كما تحتج على ما يلاقونه من سوء المعاملة[1]».

• فى مواجهة اللنبى

الماريشال اللنبى هو المعتمد البريطانى فى مصر. وهو أحد كبار القادة العسكريين. وكلنا نعرف طبيعة العسكريين الذين تعودوا على إصدار الأوامر والطاعة العمياء، واللنبى كما يقول التاريخ كان هو الحاكم الفعلى للبلاد، يأتمر الوزراء ورئيس الوزراء بأمره، ويحسب له الجميع ألف حساب، لكن نساء مصر وجدن الشجاعة للاحتجاج على قرار هذا القائد العسكرى مرهوب الجانب، وكان هذا الاحتجاج بمناسبة نفى سعد زغلول للمرة الثانية فى ٢٥ ديسمبر ١٩٢١، ومما جاء فيه:

«إذا كنت يا صاحب الفخامة تعتقد فى نفسك القدرة على خنق صوت الأمة المصرية بإبعاد الرجل الذى عهدت إليه الأمة المصرية بأن يتكلم باسمها، فارجع عن هذا الاعتقاد أيضا. إذ إن القوة تفنى

(١) المرأة بين التطور والتحرر، ص ٢١٤.

والحق يبقى! وسوف نواصل احتجاجنا بلا انقطاع على التدابير الجائرة الظالمة التى تتخذها فخامتك ضدنا، وهى تدابير لن تؤدى إلا إلى إثارة غضب الشعب وغضب الله[1]».

إننا أمام لهجة شديدة كتبت بها النساء اللاتى لا تنقصهن الشجاعة احتجاجهن دون خوف؟ بل هى جرأة قد يعجز عنها بعض الرجال؟ لكنهن نساء مصر.

● النساء يطالبن عدلى بالاستقالة

عدلى يكن شخصية من أهم الشخصيات المعاصرة لسعد زغلول، وخصمه الأشهر، وقد تولى عدلى الوزارة (من ١٦ مارس١٩٢١ - ٢٤ ديسمبر ١٩٢١) وذهب لمفاوضة الإنجليز باعتباره رئيسا للحكومة، لكن سعد والوفد رفضوا الانضمام إليه، إذ كان سعد يرى أنه وكيل الأمة الذى يجب أن يتكلم باسمها، والمهم أن المفاوضات بين عدلى والإنجليز التى اشتهرت باسم «مفاوضات عدلى/ كيرزون» قد باءت بالفشل. وعاد الرجل إلى مصر دون أن يوقع أية معاهدات مع الإنجليز، وتوقع الجميع منه أن يبادر بتقديم استقالته، لكنه تباطأ. وحينئذ قرر نساء الوفد أن يطالبنه بتقديم استقالته، وكتبن إليه خطابا مفتوحا بهذه المطالبة برأيهن. ولم يلبث عدلى أن تقدم باستقالته.

● الاتحاد النسائى

خرج الاتحاد النسائى المصرى من قلب لجنة الوفد المركزية للسيدات،

(١) مذكرات هدى شعراوى، ص ٢٣٩.

ففى مارس ١٩٢٣ تلقت هدى شعراوى دعوة من مؤتمر روما للمشاركة فى فعالياته باعتبارها رئيسا للجنة الوفد المركزية. وفكرت هدى: لماذا لا يكون لدى مصر اتحاد نسائى يتحدث باسم نسائها، ويعبر عن آمالهن وآلامهن ويتبنى قضاياهن؟ وعلى الفور اتصلت بزميلاتها فى لجنة الوفد المركزية للسيدات. ومن قلب هذه اللجنة الثائرة خرج الاتحاد النسائى المصرى، ضاما فى عضويته المسلمات والمسيحيات معا.

وبعد تشكيل الاتحاد تشكل وفد مصر الذى سيشارك فى المؤتمر، وكانت إستر ويصا من بين المشاركات فى الوفد، إلا أن شيئا جد فحال دون مشاركتها، وبرغم هذا فمن المناسب أن نرى ما فعلته هدى شعراوى برغم عدم وجود مسيحيات فى الوفد بعد اعتذار إستر. فقد صنعت علما كبيرا عليه الهلال والصليب يتعانقان ليكون هو العلم المعبر عن مصر. ولعل هذا الفعل الرمزى يبين لنا طابع الوحدة العميق بين نساء مصر مسلمات ومسيحيات أثناء ثورة ١٩١٩.

• الدستور والبرلمان

تشكلت لجنة لوضع دستور ١٩٢٣، إلا أن الوفد كان غير راض عن هذه اللجنة، ولذلك وصفها سعد زغلول بأنها «لجنة الأشقياء»، وكما فعل سعد باشا فعلت النساء أيضا، فقد اعترض بعضهن لعدم تمثيل المرأة فى اللجنة، وبعد وضع الدستور وإجراء الانتخابات أقيم حفل بمناسبة افتتاح البرلمان، إلا أن النساء لم يدعين للمشاركة فى الحفل، لذلك أصدرن بيانا يحتججن فيه على عدم دعوتهن، جاء فيه: «لجنة الوفد المركزية للسيدات تحتج بشدة بصفتها هيئة تمثل الأمة التى اشتركت

فى الجهاد والتضحية لاستقلال بلادها، على رفض طلبها لحضور حفلة افتتاح البرلمان. وترى فى إغفال وزارة الشعب دعوتها فى وقت دعت فيه سيدات أجنبيات عملا لا يليق بالكرامة».

وكان من التقاليد فى هذا الحفل أن يلقى خطاب يسمى خطاب العرش، وقد اجتمعت اللجنة بعد خطاب العرش لمناقشته. ورأين أن هذا الخطاب غير واف، وفيه من الغموض ما يمكن أن يؤوله الخصم لمصلحته، وطالبت اللجنة نواب الشعب لكى يدخلوا التعديلات التالية على خطبة العرش:

١ - النص على تعديل الدستور حتى يكون طبق الدساتير الحديثة، وأن تذكر فيه حدود الدولة المصرية مع النص على أن السودان جزء منها لا يتجزأ.

٢ - النص على إصلاح القوانين الخاصة بحرية الاجتماعات والصحافة.

٣ - النص على تعديل مواد الدستور الخاصة بالمسئولية الوزارية تعديلا يجعل الأمة صاحبة الحق فى حكم البلاد.

٤ - النص على تقوية الجيش المصرى والقوى الحربية الأخرى ممايكفل المحافظة على سلامة الدولة.

أما التوقيعات على هذا البيان فكانت لكل من: هدى شعراوى، نعيمة أبو اصبع، روجينة خياط، نعمت حجازى، إستر ويصا، فايقة رفيق، ألفت راتب، عزيزة فوزى، إحسان أحمد، فكرية حسنى[1].

(١) مذكرات هدى شعراوى، ص ٢٩٦ - ٢٩٧.

هكذا وقفت النساء المصريات دون تفرقة بينهن لدواعٍ دينية لينقدن خطاب العرش، ويدلين برأيهن فى الأحداث الكبرى التىً تمر بوطنهن.

● النساء يضعن تصورا لمصر المستقبل

وفى عام ١٩٢٤ وضع نساء مصر العظيمات تصورا لمصر المستقبل كما يحلمن بها، وطبعن هذا التصور ووزعنه ليكون معلوما للجميع، ويضم هذا التصور أمورا تبدو وكأنها كتبت اليوم. مما يدل على أن المجتمع المصرى يتحرك محلك سر فى أشياء كثيرة، ومن ذلك مثلا أنهن يطالبن بإلغاء القوانين الاستثنائية. مثل قانون الأحكام العرفية التى أصيبت به مصر لفترات طويلة، وقانون المطبوعات الذى ينص على إحالة الصحفيين لمحكمة الجنايات، وقانون التجمهر. (هامش موجود وليس له رقم فى النص[1]).

كان هذا التصور يضم أربعة أقسام هى:

١ - القسم السياسى.

٢ - تعديل الدستور.

٣ - القسم الاجتماعى.

٤ - القسم النسوى.

وتحت كل قسم من هذه الأقسام جاءت عدة مطالب، ففى القسم السياسى مثلا نجد المطالبة بـ:

(أ) الاستقلال التام لمصر والسودان.

(١) مذكرات هدى شعراوى، ص ٣٢٥ - ٣٢٦.

(ب) التمسك بحياد قنال السويس حسبما تحدده الفرمانات والمعاهدات، على أن يوكل لمصر المحافظة على هذا الحياد كما كانت الحال قبل الاحتلال.

(ت) عدم التقيد بتصرفات انجلترا فى الأراضى المصرية سواء بالنسبة لنفسها أو للدول، وكذلك عدم التقيد بالاتفاقات التى سبقت دون أن تقرها الأمة خصوصا اتفاقية السودان، وتصرفات انجلترا فيه، وتصريح ٢٨ فبراير، وما ينبنى عليه من القوانين والإجراءات.

(ث) عدم الاعتراف بما ورد فى معاهدة لوزان سنة ١٩٢٣ من تحميل الخزانة المصرية قسما من ديون تركيا القديمة، فإن سيادة تركيا على مصر زالت وليس لها عليها حق ما.

(ج) الامتيازات الأجنبية تحل حلا وديا بين حكومة مصر المستقلة (المطلقة التصرف) من جهة وبين الدول ذوات الشأن من جهة أخرى.

(ح) إذا رأت الأمة وجوب الدخول فى مفاوضة مع انجلترا لاسترداد حقها المغتصب، فليكن بشرط أن تصرح الهيئة المنتخبة لإجراء المفاوضة بقاعدة صريحة، وبشرط أن تقبل انجلترا مبدئيا هذه القاعدة حتى تكون المفاوضة مثمرة ولا تفشل كما حصل مرتين[1].

إننا أمام رؤية سياسية ناضجة، تدل على أن نساء مصر قد صقلتهن تجربة العمل السياسى فى ظل الثورة، فصارت لهن رؤية ثاقبة، وكانت لديهن الشجاعة لكى يطرحن هذه الرؤية على الرأى العام دون تردد أو خوف.

---

(١) مذكرات هدى شعراوى، ص ٤٣٨.

• الوقوف فى وجه الطاغية

والطاغية هنا هو إسماعيل صدقى، الذى ألغى العمل بدستور ١٩٢٣ ووضع دستورا سيئ السمعة هو دستور ١٩٣٠. وحين قام الرجال بالمظاهرات احتجاج على هذا الدستور قمعهم صدقى بكل شدة، ولم ترهب هذه الشدة النساء المصريات فقررن الخروج فى مظاهرة للاحتجاج على هذا العنف المفرط تجاه أبنائهن وأزواجهن وأولادهن، وأشقائهن. ولم يتراجع إسماعيل صدقى عن عناده فى مواجهة النساء ومالهن من حرمة، بل تعامل معهن بعنف أيضا. وحينئذ نشرت رئيسة الاتحاد النسائى خطابا مفتوحا تعبر فيه عن رأى النساء، وزارت هدى شعراوى وستون سيدة فى سياراتهن بيت الأمة، وكان مقصدا لكل المظاهرات الوطنية برغم وفاة سعد. والتقين بصفية زغلول، وهتفن بحياة الزعيمين مصطفى النحاس ومحمد محمود، وبسقوط الانتخابات المزورة، وكان الأمر مفاجأة للداخلية التى حاصرت المظاهرة. وإن كانت قد اضطرت للإفراج عن المتظاهرات واحدة بعد الأخرى على أن تسير كل سيارة فى اتجاه مخالف[1].

• بعيدا عن العمل السياسى

ليس معنى ما سبق أن المرأة المصرية فى وقت الثورة قصرت نشاطها على السياسة وحدها. بل استطاعت أيضا أن تكون لها رسالة اجتماعية ناضجة قادت المجتمع لمزيد من الاستقرار والتقدم.

(١) مذكرات هدى شعراوى. ص ٣٣١.

فـى عام ١٩٢٣ – على سـبيل المثال – افتتحت النسـاء المصريات مدارس لتعليم نسـاء الشـعب، مبادىء علم الصحـة والتمريض وبعض الصناعات اليدوية، ومحاربة البدع والخرافات، ومعالجة المرضى منهن ومـن أطفالهن مجانـا، وكان التعليم مجانا يتطوع بـه أعضاء الجمعية (جمعية الاتحاد النسائى).

وفى العام نفسـه طلبت النساء من يحيى باشا إبراهيم رئيس الوزراء مطلبين:

١ – منـع مأذونى عقود الزواج عن تحريـر أى عقد إلا بعد التثبت من بلوغ البنت ١٦ عاما والولد ١٨ عاما.

٢ – مساواة البنت والولد فى التعليم حتى نهاية المرحلة الثانوية، وهذا هو ما سمح للفتيات بعد سنوات قليلة بدخول الجامعة.

وقد اسـتجاب رئيس الوزراء للمطلبين فكان ذلك إنجازا كبيرا للمرأة المصرية.

كمـا طرحت المرأة أفكارا فـى غاية الأهمية عام ١٩٢٤ ضمن التصور الذى وضعته النساء لمستقبل مصر، ومن هذه الأفكار:

١ – مساواة الجنسين فى التعليم.

٢ – الإكثار من المدارس الثانوية للبنات.

٣ – تعديـل قانـون الانتخابـات بإشـراك النسـاء مـع الرجـال فى حق الانتخاب.

٤ – المطالبة بقانون يمنع تعدد الزوجات إلا للضرورة.

٥ – عدم الطلاق إلا أمام القاضى.

ولا شك أن معظم هذه الأفكار قد وردت فى كتابات قاسم أمين، وتجديد الدعوة إليها يمثل استمرار الدعوة لتحرير المرأة المصرية وصولا لامرأة جديدة.

هذه صفحة من صفحات جهاد المرأة المصرية أثناء ثورة ١٩١٩ رأينا كيف يصعب فيها فصل دور المرأة المسيحية عن دور شقيقتها المسلمة، مما يظهر لنا مدى التآلف والتعاون والوحدة بين مسلمات هذا الوطن ومسيحياته.

❑❑❑

خاتمة

استعرضنا فى الصفحات الماضية أمرين:

١ – الأســاس الدينى الذى وضعه الدين الإســلامى للتعامل مع الأشقاء المســيحيين، وبيّنا فيه كيف وصفهم ســبحانه بأنهم أقرب الناس مودة للمســلمين، وأنه أمرنا بألا نكرههم على اتباع الإسلام، وأن نجادلهــم بالتى هى أحســن. كما بيّنا أن إيمان المســلم لا يكتمل إلا إذا آمن بالمسيح عليه السلام والكتاب المنزل عليه.

٢ – التاريــخ المشــترك ومافيه من صفحات مضيئــة، بدأت مع دخول الإسلام واستمرت حتى اليوم.

وقــد رأينا خلال هذا الاســتعراض كيف أن ثــورة ١٩١٩ كانت علاجا لاحتقان طويل ساد بين المسلمين والمسيحيين، حيث شعر المسيحيون بأنهم شركاء فى الوطن، بلا تمييز، ولا تفرقة. وارتضى المصريون جميعا شعار: «الدين لله والوطن للجميع».

وفى رأيى أن أهم أركان الحياة فى مصر المعاصرة هى:

- النيل.
- الوحدة الوطنية.
- تبنى مشروع للنهضة القومية.

فالنيل هو سر الحياة، والوحدة الوطنية هي سر الاستقرار، والتعاون، والبناء، والتنمية. أما أساس النهضة فهو وجود مشروع قومي يلتف حوله الناس، ويبذلون كل غالٍ ونفيس من أجل تحقيقه. ولا يضير أبدا أن تكون ثمة عقبات أمام مشروع النهضة، فقد كانت العقبات شديدة أمام مشروع محمد علي للنهضة، وأمام مشروع عبد الناصر، وأمام السادات في مشروع تحرير الأرض. إلا أن هذه العقبات كانت قوة دفع فجرت ينابيع التحدي في نفوس المصريين كي ينتصروا عليها.

وعلينا ونحن ننظر للمستقبل أن نضع هذه الأمور نصب أعيننا.

إن الأوضاع وقت كتابة هذه السطور تقول إن مصر تعاني من محاولات القوى المضادة لضربها من خلال ضرب وحدتها الوطنية، والسؤال: هل ستكون مصر قادرة على مواجهة التحدي كما كانت دائما قادرة على تقديم استجابات مبدعة في وجه كل التحديات التي واجهتها؟

إنني اثق في قدرة مصر برغم خوفي مما يدور حولي.

وفي ختام هذا الكتاب أرجو أن تقرر وزارة التربية والتعليم مادة جديدة طوال المرحلتين الابتدائية والإعدادية تسمى الوحدة الوطنية، حتى تنشأ الأجيال القادمة واعية بأهمية هذه الوحدة لمصر، وتسعى للمحافظة عليها بالحب والتسامح وقبول الآخر، وتبني فكرة المواطنة، وأن الدين لله والوطن للجميع.

❑❑❑